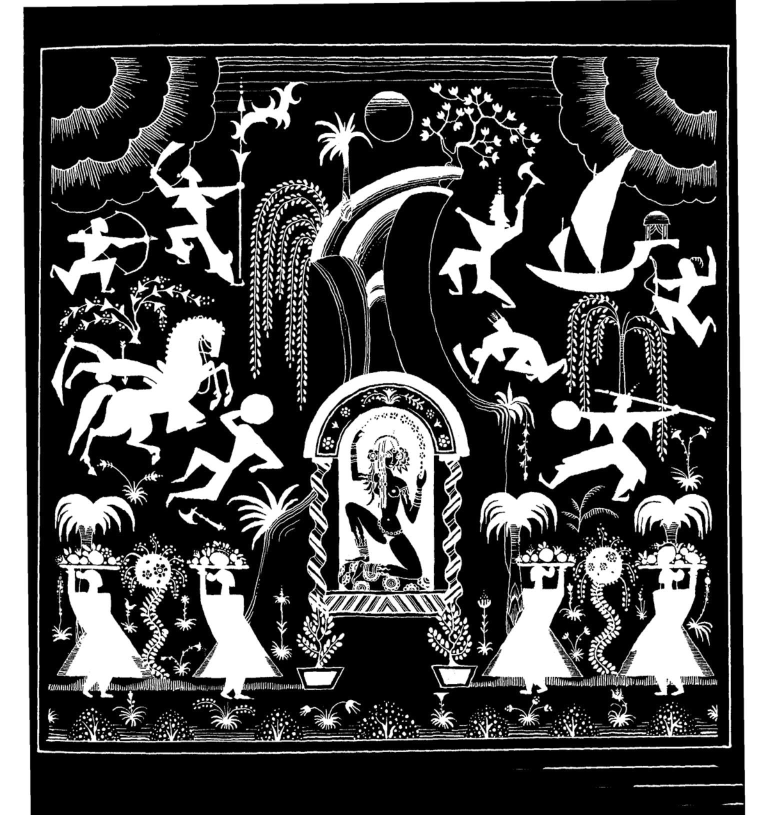
فكر وفن

٤٢









الافتـتـاحـيـة

في هذا العدد (٤٢) اهتممنا بثلاثة محاور : – ١) التنوير – ٢) الف ليلة وليلة – ٣) هاينريش بلْ : كاتباً وإنساناً .
وقبل أن نفسر اختيارنا لموضوع التنوير ، نحاول أن نجيب باختصار شديد على السؤال التالي : ما هو التنوير ؟ إن جلّ القواميس الفلسفية تجمع على أنه الاسم الذي يطلق على تيار فلسفي ظهر خلال القرن الثامن عشر . وأنصار هذا التيار وأعداؤه يتفقون جميعاً في تحديد مفهومه . فالكاهن ميسلي يقول في «الوصية» (١٧٢٥) : «ان نور العقل الطبيعي هو وحده الكفيل بأن يقود الناس الى الحكمة والكمال العقلي .» . وفي جوابه عن سؤال : ما هو التنوير يقول كانط : «لتكن لديك الشجاعة لاستخدام عقلك : ذلك هو شعار التنوير» . أما هيجل فانه يؤكد في «فينومنولوجيا الروح» أن التنوير هو إثبات للعقل . وتعكس فلسفة التنوير ، التحولات الاقتصادية والسياسية والثقافية التي شهدتها أوروبا ما بين القرن السابع والثامن عشر ، وخاصة صعود البورجوازية وتوسعها على حساب الاقطاعية . أما جوهرها فهو الدعوة الى استخدام العقل بهدف تحقيق السعادة فوق الأرض . والى حد النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ظل «التنوير» الشعار الذي ترفعه أوروبا بأسرها من أجل التقدم والتطور الصناعي والتكنولوجي . ثم رفع نيتشه صوته محتجاً على هذه «العقلانية الباردة» وممجّداً الجنون . أما «رامبو» فصرخ قبل أن يتيه في حرار بحثاً عن الثروة : «العلم ! النبالة الجديدة ! العالم يسير الى الأمام ! لكن لماذا لا يلوي رأسه للوراء !» . وقد ازداد نقد «التنوير» و«العقلانية» حدّة مع السرياليين ومع الوجوديين (كامي خاصة) . والآن أصبح من الموضوعات الساخنة التي تشغل المفكرين والكتّاب والفنانين وحتى الحركات الصغيرة المدافعة عن الطبيعة وعن حماية البيئة . وهو ما دفع بناقد مثل «فريتز رادتس» لكي يقول في إحدى مقالاته : «ان التنوير يأكل أبناءه» ! إن جملاً مثل : «ان هروبي – اذا ما كان هناك هروب – سيكون باتجاه السر» (بيتر هاندكه) أو : «الحياة تبدو وكأنها دوران في نفس المكان» (توماس براس) أو : «كان من الأحسن لو بقينا حيوانات برمائية» (غونتر كونارت) أو : «لم يعد يوجد لا تقدم ولا هدف . ليس هناك غير دائرة» ! (رودولف هوخهوت) تعكس الى حد كبير انحسار التيار «التنويري» بل وتبرز ان جملة ديكارت الشهيرة : «أنا أفكر . إذن أنا موجود !» فقدت سحرها في عصرنا الراهن وأن «التنوير دمر العالم ولم يغير وضع الانسان نحو الأفضل ، وإن كل الثورات التي اشتعلت بهدى منه تحولت بعد ذلك الى آلات للموت !» . وفي إطار هذا المحور اخترنا في البداية نصاً لادجار موران ، يحاول فيه إبراز النقاط الأساسية في الجدل القائم الآن حول «التنوير» ثم نصاً لكروكوف يفسر فيه معاني نص كانط الشهير : «ما هو التنوير ؟» وبعد ذلك اخترنا نصاً حول الفيلسوف الالماني الكبير جيورج هابرماس يوضح معنى «العقل المنفتح» وآخر حول العلاقة بين الأدب والعقل ، ثم نصاً حول المفكرَين لوكاتش وإرنست بلوخ كمناضلين كبيرين من أجل العقل . وأخيراً اخترنا نصاً حول فكرة الرؤيا التي بدأت تبرز من جديد ضمن الأعمال الفنية والفلسفية والروائية . وفي الجزء الثاني من المحور نفسه ، اخترنا نصين : الأول للكاتب المصري سلامة موسى ، والثاني للمفكر التونسي هشام جعيط . وهما ينتسبان الى جيلين مختلفين . فسلامة موسى من «الجيل الكبير» الذي تأثر بالعقلانية الاوروبية وتحمس تحمّساً شديداً للتنوير وأسس الحداثة العربية في مجال الابداع والكتابة والتفكير . أما هشام جعيط فهو من جيل مرحلة ما بعد نكسة حزيران ١٩٦٧ ، الذي يسعى الآن لفهم فشل «النهضة العربية» وتفسير أسباب الانكسارات التي يواجهها الى حد هذا الوقت .

في المحور الثاني الخاص بالف ليلة وليلة ، حاولنا من خلال دراسة حول تأثيرات هذا الكتاب الرائع على الحركة الرومانسية الاوروبية عامة والألمانية خاصة ، ومن خلال نص لهوفمنزتال – وهو أحد المتأثرين الكبار بالف ليلة وليلة ، أن نبرز قيمة هذا الأثر الخيالي العظيم وأن نوضح كيف أن الأوروبيين استفادوا منه أكثر مما استفاد منه أصحابه – أي العرب – .

أما المحور الثالث فقد خصصناه للكاتب الكبير هاينريش بلْ الذي توفي في ١٥ تموز/يوليو من هذا العام عقب حياة مليئة بالابداع وبالنضال من أجل السلام والكرامة الانسانية . وقد كان بلْ واحداً من أهم الذين جسدوا في أعمالهم مأساة ألمانيا خلال الحرب ، ثم أوضاعها في ما بعد . وفي ركننا الخاص بالأدب والفيلم نشرنا حواراً مع المخرج الكبير فولكر شلوندورف حول «شرف كاترينا بلوم الضائع» المأخوذ عن قصة بنفس العنوان للكاتب الراحل هاينريش بلْ . أما بقية العدد ، فقد خصصناه للحديث عن المعارض الكبرى التي شهدتها ألمانيا الفيدرالية هذا العام : معرض رسوم پاول كلي – معرض التماثيل الفرعونية – معرض الفن التركي ، وأيضاً عن المعهد الشرقي في هامبورغ وعن الكتب والمجلات الحديثة والتي لها علاقة بالعالم العربي – الاسلامي .

(المحـرر)



العدد ٤٢ العام ٢٢ ١٩٨٥

تصدرها إنترناسيونيز

مدير التحرير : د . اردموته هللر

الفهرست

٤ ادجار موران : ملاحظات حول جدل ساخن : العقل والواقع الجديد

Edgar MORAN: Betrachtungen zu einer heissen Kontroverse

٨ كريستيان جراف فون كروكوف : لتكن لديك الشجاعة لاستخدام عقلك! التنوير لا يزال مهمة صعبة في المانيا

Christian Graf von KROCKOW: Habe Mut, dich deines eigenen Verstandes zu bedienen !
Aufklärung ist in Deutschland immer noch ein mühseliges Geschäft

١٤ إيقوا فرنتسل / كارل رادتس : مناضلان في سبيل العقل
بمناسبة الطبعة الجديدة للرسائل المتبادلة بين إرنست بلوخ وجيورج لوكاتش

Ivo FRENZEL/Fritz J. RADDATZ: Zwei Streiter für die Vernunft
Zur Edition des Briefwechsels zwischen Ernst Bloch und Georg Lukaćs

٢٠ إيڤو فرنتسل : محاولات لانقاذ العقل – خطاب الحداثة الفلسفي

Ivo FRENZEL: Jürgen HABERMAS – Versuch einer Rettung der Vernunft.
Der Philosophische Diskurs der Moderne

٢٢ في العلاقة بين الأدب والعقل

Über das Verhältnis zwischen Literatur und Vernunft

٢٨ ميخائيل شنايدر : هل تكون الرؤيا مصدراً للأمل ؟

Michael Schneider: Apokalypse – ein Prinzip Hoffnung ? Ernst Bloch zum 100. Geburtstag

٣٦ سلامه موسى : تربيتي العلمية

Salama Musa: Über meine geistig-intellektuelle Erziehung

٤٢ هشام جعيط : الانتاج الفكري العربي منذ عشرين سنة

Hijam DJA'IT: Eine Analyse des arabischen Denkens der letzten 20 Jahre

٥٠ اردموته هللر : شهرزاد والحركة الرومانتيكية في أوروبا

Erdmute HELLER: Sheherazade und die romantische Bewegung in Europa

٦١ هوجو فون هوفمنزتال : حول الف ليلة وليلة

Hugo von HOFMANNSTHAL: Über Tausendundeine Nacht

٦٢ فريتز ي . رادتس : رحيل هاينريش بل ، حامل جائزة نوبل للآداب .
وفاة مرجع – هاينريش بل : شاعر ، واعظ ، مادّي ، وحالم

Fritz J. RADDATZ: Abschied vom Nobelpreisträger für Literatur
Der Tod einer Institution – Heinrich Böll: Poet und Prediger – Materialist und Träumer.

٦٦ هاينريش بل : في الأدب والأخلاق والسياسة

Heinrich BÖLL: Über Literatur, Moral und Politik

يقدم الناشر ودار النشر شكرهم لكل من ساهم بمعونته في إعداد هذا العدد

إدارة التحرير : Adresse der Redaktion: Erdmute Heller, Franz-Joseph-Str. 41, D-8000 München 40

FIKRUN WA FANN

Nr. 42 Jahr 22 1985

Herausgeber: INTER NATIONES
Redaktion: Dr. Erdmute Heller

Heinrich BÖLL'S letztes Gedicht — قصيدة هاينريش بـلْ الأخيرة ٦٧

مونيكا ماورر : «فكر وفن» تحاور المخرج فولكر شلوندورف – هاينريش بلْ وكاترينا بلوم ٦٨
Monica MAURER: Zeitgeschichte, Literatur und Film. Interview mit Volker Schlöndorff zur Verfilmung der Böll-Novelle „Die verlorene Ehre der Katharina Blum".

Heinrich BÖLL: Anekdote zur Senkung der Arbeitsmoral — هاينريش بـلْ : نادرة للحط من اخلاقية العمل ٧٤

إلفريده جروس : الفن التركي في العهد العثماني ٧٦
Elfriede GROSS: Türkische Kunst und Kultur aus osmanischer Zeit. Zu einer Ausstellung in Frankfurt und Essen

ديتريش ڤلدونج : علم الآثار المصرية وآفاق التسعينات ٨٢
مؤتمر علماء الآثار الدولي الرابع المنعقد في ميونيخ عام ١٩٨٥
Dietrich WILDUNG: Ägyptologie für die Neunzigerjahre. 4. Internationaler Ägyptologen-Kongress München 1985

حبيب جنحاني : ملاحظات حول المؤتمر السادس عشر للعلوم والدراسات التاريخية ٨٤
Habib JANHANI: Internationale Historiker-Konferenz in Stuttgart

ستيفان ڤيلد : حول الملتقى الثالث والعشرين للمستشرقين الألمان ٨٥
Stefan WILD: Marginalien zum 23. Deutschen Orientalistentag

Aziz Al-QAZAZ: 25 Jahre Orient-Institut Hamburg — عزيز القزاز : معهد الشرق الألماني في هامبورج ٨٦

Stefan GRÜN: Paul Klee als Zeichner — ستيفان جرون : ملاحظات حول رسوم پاول كلي ٨٨

KULTUR-CHRONIK — الأحداث الثقافية في ألمانيا ٩٠
Literaturpreise und neue Bücher über die arabische Welt

Hommage an Hans und Sigrid Kahle — تحية الى هانس كالا وزوجته السيدة زيغريد ٩٥

Abschied von Dr. Horst Schirmer — تحية الى الدكتور هورست شيرمير ٩٦

صورة الغلاف : فريدنسرايش هوندرتفاسر : تسع وتسعون رأساً ، ١٩٥٢ ، مجموعة بازيل جولاندريس ، باريس ، لوزان ، أثينا .
الغلاف الداخلي الأول : كاي نيلسون – رسوم مستوحاة من قصص الف ليلة وليلة الغلاف الداخلي الثاني : كاي نيلسون – رسوم مستوحاة من قصص الف ليلة وليلة
(هوندرتفاسر ، رسام نمساوي ، تحصّل سنة ١٩٨٤ على جائزة «الفن والمحيط» وذلك من أجل أعماله الداعية الى حياة إنسانية أفضل ، والى ضرورة مقاومة التلوث الذي يهدد الطبيعة والانسان في آن معاً .

تظهر مجلة «فكر وفن» العربية مؤقتاً مرتين في السنة : النسخة ١٤ مارك ألماني ، النسخة للطلبة ٧ مارك ألماني .
تقدّم طلبات الاشتراك الى دار النشر .

الطباعة : F. Bruckmann KG, Graphische Kunstanstalten, München
صف الحروف : Orient-Satz, R. Nickodaim/Berlin
الترجمة : د . ممدوح عشري ، د . م . علي حشيشو ، د . أ . حلمي ، د . أ . خيرالله ، د . شريفة مجدي .

إدجار موران

ملاحظات حول جدل ساخن :
العقـــل والواقـــع الجديـــد

«العقل لن يجد نفسه الا حين يقدم على إلغاء ذلك المطلق المزيف الذي هو مصدر كل هيمنة عمياء .»
(أدورنو - هوركهايمر : جدلية العقل)

«مهمتنا أن نوسّع عقلنا حتى يتمكن من أن يدرك فينا وعند الآخرين ما يسبق العقل وما يتجاوزه» .
(مارلو بونتي : إشارات)

خلال مرحلة طويلة ، بدت العقلانية الانسانية ، التي كانت احدى النتائج الكبرى للثورة التنويرية ، وكأنها تجسّد التقدم والتحرر الحقيقي . وكان ذلك واضحاً من خلال صراعها المتواصل والعنيف أحياناً ضد الأساطير والأديان . كما أن رغبتها في الانتشار على نطاق واسع ، وحتى في تلك الأماكن الضائعة والخفية ، جعلت منها ركيزة قوية يعتمد عليها المسحوقون والمظلمون والمستعمَرون لاستعادة حريتهم وكرامتهم وإنسانيتهم . ورغم ذلك فان المباديء التي دعت اليها العقلانية الانسانية ، وسعت الى نشرها بين الشعوب بحماس شديد ، ظلت «مجردة» ، إذ أنها لم «تحترم» الفروق بين الثقافات . وهو ما أدى مع مرور الزمن ، الى ما يسميه البعض الآن «بالامبريالية الثقافية» ، تلك التي تلغي وجود الثقافات الصغيرة والبدائية بل أنها تحتقرها ، وتسعى الى تدمير قيمها ومرتكزاتها .

لقد تحدث «هيديجر» Heidegger عن ذلك العنف الذي يختفي وراء إنسانية العقل الأبوية . فالطبيعة مطالبة دائماً بأن تمثل أمام محكمة العقل ، وأن تخضع لمختلف التجارب . والعلم ، عوض أن يغمر الطبيعة بحبه ، يدمّرها ويسعى جاهداً للسيطرة عليها سيطرة كلية . والعالم بأسره محكوم عليه بأن يخضع للتكنولوجيا بدعوى أنها قادرة على توفير السعادة الحقيقية .

ورغم أن «هوركهايمر» و «أدورنو» هما على طرفي نقيض مع هيديجر ، فانهما يصلان الى نفس النتائج بخصوص مسألة نقد العقل : «إن العقل يتعامل مع الأشياء كما لو كان ديكتاتوراً . وهو لا يعترف بالأشياء الا حين يحس أنه قادر على أن يتلاعب بها .» . ويكفي أن يتحول الناس الى أشياء لكي يواجهوا نفس المصير ويخضعوا خضوعاً تاماً لديكتاتورية العقل الحديث . وعندئذ يحدث الاكتمال التكافلي لفكرة النظام والكلية في ظل الكليانية الشاملة . ويقول هوركهايمر وأدورنو : «العقل أكثر كليانية من أي نظام» . ولتوضيح هذه الفكرة ، أقول بأن الكليانية لا تكتمل الا حين توحد بين مكوّنين : مكوّن ديني/صوفي (مخفيّ) ، ومكوّن عقلاني / معقلن . لكن قبل أن أتحدث في هذه المسألة ، لا بد أن أتفحص من جديد مسألة العقلنة التي هيمنت من خلال التقنية والبيروقراطية على جميع مجالات الحياة . ان مبدأ العقلنة هنا يربط بين النظام/الكلية/الدقة وبين فكرة الاقتصاد والانتاج والفاعلية .

وقد توصلت البيروقراطية ، اعتماداً على الدقة العقلانية ، الى أن تتطور بشكل مخيف ، حتى اننا أصبحنا نحس جميعاً بثقلها تماما مثل ذلك المواطن الغريب ، جوزيف ك . الذي جعله فرانز كافكا بطلاً لقصته «المحاكمة» . إنها ليست هناك في الدواوين ، والوزارات ، والادارات ، إنها في أعماقنا ، وفي تلك المناطق الخفية من ذواتنا .

أما الصناعة فانها أصبحت تنظر الى الأشياء من زاوية واحدة : هل هي صالحة أم غير صالحة . وداخل المعامل تحوّل البشر الى مجرد آلات تقوم بنفس الحركات لساعات طويلة من أجل «ضمان الفاعلية في مجال الانتاج» . غير أنه بمرور الزمن ، تبين لنا جميعاً أن هذا الأسلوب لا يمكن أن يضمن النتائج المرتقبة . بل وربما يزيل الرغبة في العمل نهائياً . ولهذا السبب أخذت العقلنة منعرجاً آخر . وأخذت تطبق أساليب جديدة مثل تشريك العمال في المرابيح ، وفي التسيير بهدف ضمان الانتاج

والمحافظة على النظام . ونعتقد أن مثل هذا الأسلوب الجديد في مجال العقلنة أكثر إيجابية ، لأنه أكثر إنسانية .

ويمكن القول ، أن التصنيع ، والتمدّن ، والبيروقراطية ، والتقنية ، تطورت كلها حسب القواعد والمناهج العقلانية . وقد وقع استعمال الأشخاص كما لو كانوا مجرد أشياء لا تصلح إلا لأغراض تخص النظام والاقتصاد والفاعلية . غير أن هذه العقلنة لُطِّفت أحياناً بالانسانية ، وبلعب القوى السياسية والاجتماعية المختلفة . هذا بخصوص الغرب . أما في المناطق الأخرى من العالم ، أي تلك التي نسميها البلدان الفقيرة أو المتخلفة ، فانها إنزرعت مثل السرطان والتهمت الكثير من القيم .

من هنا يمكننا أن نتابع السير العملي للعقلنة :

١) يمكن أن تكون العقلنة إنسانية ، حين يتعلق الأمر بتنظيم المجتمع ، وتسهيل حياة البشر ، وتطبيق تلك المبادىء التي يطمحون اليها مثل الحرية والعدالة والمساواة . وهي «إمبريالية» حين تداهم العالم بأسره وتضاعف من شقاء الشعوب التي تناضل من أجل استقلالها ، والمحافظة على ثقافاتها ، وحضاراتها .

٢) وتكون العقلنة كليانية حين تنفصل عن الانسانية وعن النقد المناهض للدين ، وتتحد مع أسطورة كبيرة وعميقة . وعندئذ يمكن أن نرى أن العقلانية والعقلنة جدّ مزدوجين وذا وجهين : وجه تقدمي وآخر رجعي . غير أن الوجه التقدمي مرتبط بالعقلانية / الفكر النقدي / الانسانية . واذا ما انفك هذا الرباط فان العقلنة تبدو عارية ، وعندئذ يمكنها أن تلتحم بالقوى السوداء لكي تؤسس الكليانية التي كان «هوسيرل» Husserl يسميها «عقلانية الاهرامات» .

هل ثمة عقل جديد ؟

ان العقل الجديد ، اذا ما وجد ، لا يمكن أن يكون الا معقداً ومسكونا بالشك . أي أن يتأسس على العلاقة القوية والدائمة ، وفي نفس الوقت ، المكملة ، والمعتمدة على المنافسة والتضاد ، بين العقل واللاعقل .

١) ليس هناك «العقل الألـــه » ، أي العقل المفارق والمطلق والمكتفي بذاته . إن مثل هذا العقل الخالص ليس سوى أسطورة مغلوطة . ومهمتنا الآن ، أن «نستكشف» الجانب الأسطوري ، الشاسع والعميق للعقلانية .» (اكسيلوس: آفاق العالم) . عندئذ فقط ، يمكن أن نكتشف أن العقل هو بحد ذاته أسطورة رغم أنه يدعو الى محاربتها وازالتها من أذهان الناس .

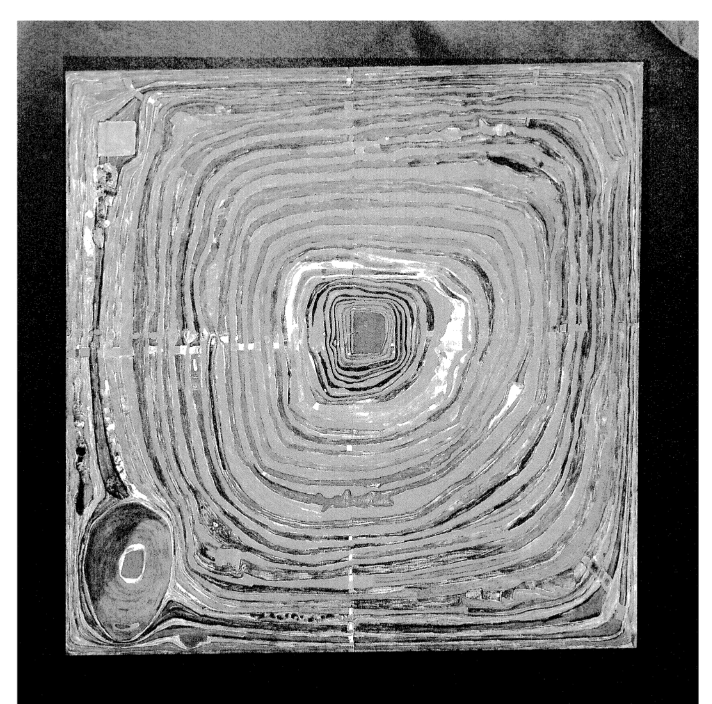
٢) إن اللقاء بين العقل والموضوع يحدث صدىً ما يؤدي الى يلغي كل واحد منهما الآخر . ومن الأكيد أن العقل الكلاسيكي عاجز عن قبول الواقع الذاتي . ولهذا فانه لا يستطيع البتة إدراك تلك الذاتية المستترة تحت العقل .

٣) هناك «تدمير ذاتي من جانب العقل نفسه» (هوركهايمر – أدورنو . فحين يرفض العقل اللاعقلي الذي يجسد المعقد ، وأيضاً الوجود والحياة) ، وحين يخفي لاعقلانيته نفسها ، وحين يطوّر جانبه العقلاني ، العنيف والجوري باستمرار فانه في الآن نفسه يقوم بتقوية وتنمية لاعقلانيته نفسها التي تصبح فجأة جنوناً وفناء .

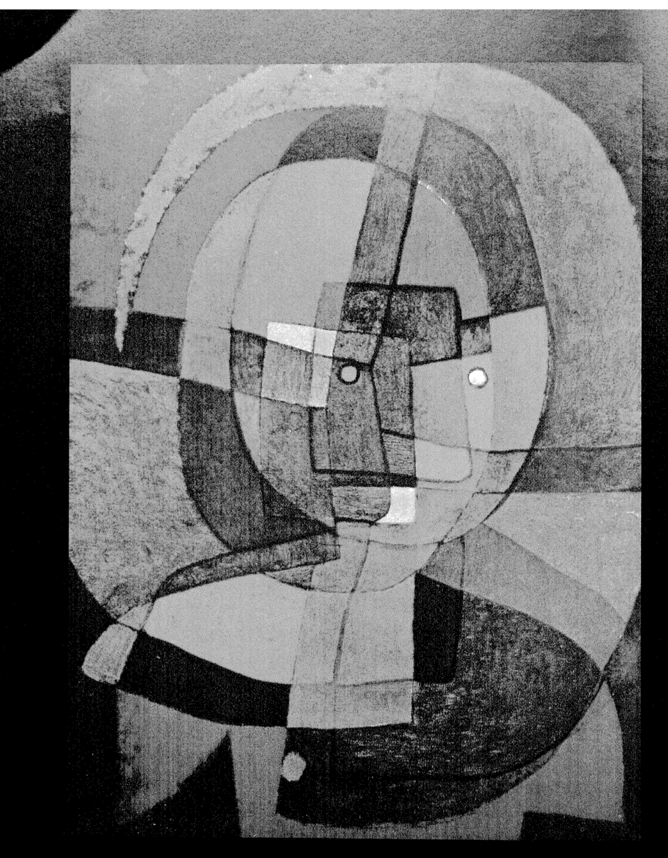
٤) من هنا يمكن القول أن هناك تحولات في العقلانية . هناك لحظة ما يصبح فيها العقل واهماً ومختلاً ، واللاعقلي عاقلاً وحكيماً .

٥) ليس علينا فقط أن نكتشف جنون العقل . علينا أيضاً أن نستكشف عقلانية الجنون . ان موضوع الحكمة / الجنون معقد ولكنه ثمين بالنسبة للفكر الغربي منذ الاغريق الى ايرازموس Erasmus .

ويكفي أن حدث ذلك الانفصال المؤلم في العقلانية الحديثة لكي تتعارض هذان العبارتان . ولا بد من التذكير من أن اللاعقل لا بدّ أن يلعب في مجاله نفس الدور الذي لعبته الفوضى في العلم الجديد (Scienza Nuova) . أي أن يكون أساسياً في كل حركة تجديدية وفي كل شكل من أشكال الخلق والابداع . «ان اللاعقل هو المصدر» قال نيتشه Nietzsche . وهو يوضح : «في كل مكان تقريباً ، يكاد الجنون هو الذي يفتح الطريق أمام الفكر الجديد ، ويرفع المنع عن عادة ما أو عن خرافة محترمة» . ومن قبله قال أفلاطون Platon : «إن الجنون هو الذي جلب كل الخيرات تقريباً الى الاغريق» .



فريدنسرايش هوندرتڤاسر : الطريق الكبير ، ١٩٥٥ .



بول كلي : دينميكية رأس .

كريستيان جراف فون كروكوف

لتكن لديك الشجاعة لاستخدام عقلك !
التنوير لا يزال مهمة صعبة في ألمانيـا

«**التنوير** هو خروج الإنسان من قصوره الذي اقترفه في حق نفسه . وهذا القصور هو عجزه عن استخدام عقله إلّا بتوجيهٍ من إنسان آخر . ويقع الذنب في هذا القصور على الإنسان نفسه عندما لا يكون السبب فيه هو الافتقار إلى العقل ، بل إلى العزم والشجاعة اللذين يحفزانه على استخدام العقل بغير توجيه من إنسان آخر . **لتكن لديك الشجاعة لاستخدام عقلك !** ذلك هو شعار التنوير» .

هذه هي جمل المقدمة لمقال بسيط طبقاً لحجمه ، فهو يتكون من ثمان صفحات كاملة تحت عنوان «الإجابة على سؤال : ما هو التنوير ؟ » . نشر هذا المقال قبل مائتي عام في ديسمبر ١٧٨٤ في «صحيفة برلين الشهرية» Berlinische Monats-schrift ، وكاتبه هو **إمانويل كانط** . ويا لها من عبارات – كأنها نقوش ! لم يحدث قبل ذلك أو لا يكاد يوجد أحد منذ ذلك الوقت استطاع أن يعبر بهذه الدقة وهذا اليسر عما تعنيه كلمة التنوير . ليست عقيدة ولا مذهباً ، ليست صرحاً تعليمياً ولا نظرة الى الحياة ، ولكنها خروج الإنسان من قصوره عن طريق استخدام العقل . ولا ينبغي إغفال ضرورة وجود الشجاعة – ويضيف كانط :

«إن الكسل والجبن هما علة رضاء طائفة كبيرة من الناس بأن يبقوا طوال حياتهم قاصرين ، بعد أن خلصتهم الطبيعة منذ أمد بعيد من كل وصاية غريبة عليهم ، وهما كذلك علة تطوع الآخرين بفرض الوصاية عليهم . ويبدو الأمر وكأن كل واحد منهم يقول لنفسه : إن الوصاية عليَّ لمريحة ! وما دمت أجد الكاتب الذي يفكر لي ، والراعي الروحي الذي يغني ضميره عن ضميري ، والطبيب الذي يقرر لي نوع الطعام الصحي الذي أتناوله ، فما حاجتي لأن أجهد نفسي ؟ ليست هناك ضرورة تدعوني للتفكير ، ما دمت أقدر على دفع الثمن ، وسوف يتكفل غيري بتحمل مشقة هذه المهمة الثقيلة . أما أن أغلب الناس (وفيهم الجنس اللطيف بأكمله) يشفق على نفسه من التقدم خطوة واحدة على الطريق الى الرشد ويعدونه أمراً شديد الخطر عليهم بجانب صعوبته ومشقته ، فقد تكفّل بإقناعهم بذلك أولئك الأوصياء الذين تكرموا بالامساك بزمام أمورهم وتفضلوا بفرض رقابتهم عليهم . فبعد أن دمغوا حيواناتهم الأليفة بالغباء وحرصوا كل الحرص على أن يحولوا بين هذه المخلوقات الوديعة وبين التجرؤ على القيام بخطوة واحدة خارج «المشاية» التي حبسوا فيها خطاهم ، أخذوا يبينون لهم هول الخطر الذي يتهددهم لو حاولوا السير بمفردهم . بيد أن هذا الخطر ليس كبيراً كما يدعون ، لأنهم سيتعلمون في النهاية كيف يسيرون على أقدامهم بعد أن يتعثروا عدة مرات . ولكن مثلاً واحداً يضرب على بعض من سقط في الطريق كفيل بأن يخيف الناس ويصدهم عن الشروع في أي محاولة أخرى .»

نقد النقد

مرة أخرى جمل بسيطة ومعبرة فهي توضح الأمر من ناحيتين : **الأولى :** هناك مصلحة في إبقاء الناس على قصورهم أو بالأحرى إن محور القضية هو تحقيق السيطرة .
الثانية : تصبح فرصة الأوصياء الذين نصبوا أنفسهم أولياء على الناس صعبة إذا لم يجدوا في الناس ذاتهم ما يسميه كانط بالكسل والجبن .

حقاً إنه لمن المريح أن تعوي مع الذئاب ، وأن تسبح مع التيار وأن تكون شجاعتك مقرونة بجمهور كبير ، لكنها شجاعة كئيبة المظهر وجبن مقنع . أما غير ذلك فيتطلب «الشجاعة الأدبية» وهي شيء نادر .
«من الصعب إذن على أي إنسان أن يتمكن بمفرده من



ايمانويل كانط كما رسمه دوبلر .

التخلص من هذا القصور الذي أوشك أن يصبح طبيعة ملازمة له . بل إن الأمر قد وصل الى حد أن يعشق هذا القصور بحيث أصبح عاجزاً عجزاً حقيقياً عن استخدام عقله . . ولهذا لن نجد إلا قلة ضئيلة استطاعت بفضل استخدامها لعقولها أن تنتزع نفسها من الوصاية المفروضة عليها وتسير بخطى واثقة مطمئنة.

وماذا بعد ذلك ، لن يفلح التنوير إذا ما أصبح شأناً فردياً ، ولكنه يشكل قضية مشتركة بين الناس جميعاً ، قضية مطروحة للمناقشة العامة ، للرأي والرأي الآخر ، للنقد ونقد النقد ، خلال ذلك يمكن أن يبث الناس الشجاعة في بعضهم البعض وحتى – أو بالأحرى – عندما تتعارض الآراء .

للرفض ثماره : فالمعارضة – وليست الموافقة – هي التي تجبر على التأمل والتفكير . ولذلك يمثل الحوار السقراطي النمط الغربي للتنوير بحيث لا يقوم المعلم بالمحاضرة والتلقين بل يطرح الأسئلة ويتابع السؤال بنقد وسخرية .

«وليس هناك شيء يتطلبه التنوير قدر ما يتطلب الحرية ، وهو في الحقيقة لا يتطلب إلا أبعد أنواع الحرية عن الضرر ، ألا وهي حرية الاستخدام العلني للعقل في كل الأمور .» وهذا تماما ما فعله سقراط وتمت إدانته بسببه . ويلفت كانط النظر الى مشكلة أخرى : إن التنوير يشكل على أي حال قضية بعيدة الأمد ، لأنه يجب التغلب على عادات القصور المتغلغلة منذ الأزل وعلى الأفكار الجامدة التي تنشأ باستمرار ، «ولهذا

فلا يمكن أن يصل الجمهور الى التنوُّر الا ببطء» . ولكن هذه مسألة تختلف حولها الآراء . ألا يمكن اختصار الطريق الى الرشد ، وتغيير كل شيء دفعة واحدة ، بحيث يتم بالقوة إسقاط الأوصياء غير الشرعيين الذين فرضوا أنفسهم ؟

اندلعت الثورة الفرنسية في فرنسا عام ١٧٨٩ بعد خمس سنوات فقط من كتابة كانط لمقاله . كانت ثورة نابعة من روح التنوير أو على أي حال مستندة اليها . لقد آذن فجر الحرية بالمجيء .

واذا رجعنا الى كانط فسوف نجد لديه في هذا الوقت المبكر رداً مشوباً بريبة غريبة :

« . . . وربما نجحت ثورة في القضاء على الاستبداد الفردي والقهر القائم على الجشع والتسلط ، ولكنها لا يمكن أبداً أن تؤدي الى إصلاح حقيقي لأسلوب التفكير ، بل إن ما يستجد من أحكام متحيزة لن يستخدم – شأنه في هذا شأن الأحكام القديمة – إلا في تضليل عامة الناس وجرهم وراءه .»

ويقول كانط ما أثبت الزمن صحته منذ ذلك الحين : إن الانقلاب لا يأتي غالباً بالحرية المرجوة ، بل يأتي في أكثر الحالات بالارهاب فقط ، متبوعاً بسيطرة القوة الجديدة – والأكثر قسوة – في ظل تغيير ظاهري للمعالم .

أما مصير التنوير فينتج عنه طامة ذات شقين :

يتحول الحماس الذي كان في البداية إلى خيبة أمل ، والكثيرون ممن كانوا مستعدين لبذل كل شيء في سبيل الانتفاضة الكبرى يتحولون الى المعسكر الرجعي . أما ممثلوهم فانهم يصابون بالذعر ويلجأون الى القمع الوقائي ، والخوف يولد الاعتداء ، ومحاربة الارهاب تولد الارهاب ، والقوة تولد القوة . ويصف كانط تلك العلاقات بطريقته وهو يبايع فريدريك الثاني ملك بروسيا :

«لا يستطيع أن يقول ما لا تجرؤ عليه دولة حرة إلا من لا يخشى الظلال وهو متنور ويملك في نفس الوقت زمام جيش جرار جيد التنظيم لضمان الأمن العام : فكروا ما شئتم وفيما شئتم ، فقط أطيعوا . هكذا يظهر هنا مسار غريب غير متوقع للأمور البشرية ، على نحو ما يظهر في ميادين أخرى ، فيبدو كل شيء فيه ، اذا نظرنا اليه في مجموعه عجيباً ، زاخراً بالمفارقات» .

ومنذ عام ١٨٧٩ تخشى القوة الفكر ، بل تتخوف من ظلال الفكر . تبدأ حقبة طويلة من القهر ، والحق أنها قد بدأت من قبل في بروسيا حيث صدر عام ١٧٨٨ قانون رقابة جديد ، أي بعد سنتين فقط من موت فريدريك الأكبر ، ومنذ ذلك الحين ظل تاريخ التنوير في ألمانيا تاريخ معاناة . لم يكن التنوير هو الذي أحدث تأثيراً عميقاً في ألمانيا ، وإنما الرومانتيكية .

لم يظهر النور الساطع للفكر النقدي في «ألمانيا» بحق ، بل الهمسات الرومانسية المظلمة تحت أشجار البلوط في ضوء القمر عند طاحونة الهواء ، وأمام أطلال العصور الوسطى .

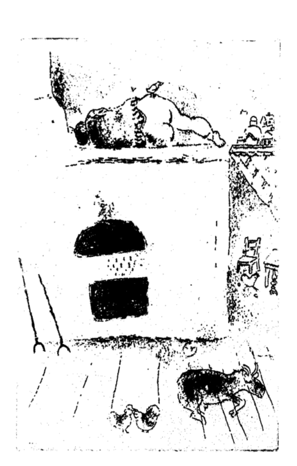
هل نحن «مواطنون راشدون» ؟

في النهاية ثبت أن كراهية كل رموز التنوير وصيغها قد أصبحت طاغية ، لأنها كانت في الباطن كراهية ذاتية . إن التخلي بالذات عن شجاعة استخدام العقل يولد القصور والشعور بالذنب ، وهو ما لا يحتمله الإنسان بطبيعة الحال وما لا يعترف به ، وإنما يكتبه في الأعماق ومن ثم ينظر للآخرين الذين تصدوا للتحرر بأنهم مفسدون .

حقيقة : إن تولي الاشتراكيين القوميين (النازيين) السلطة عام ١٩٣٣ وترحيب الجماهير بذلك على أنه «الانتفاضة القومية» ، كذلك تدمير الديمقراطية وحرق الكتب والحرمان من حماية القانون والتشريد وإعدام الفكر الناقد وإصدار البيانات وممارسة «مبادىء الزعيم» Führer ، كل ذلك كان يعني في جوهره الثورة المضادة للحرية والمساواة . كان يعني الالغاء التام للتنوير بمفهوم كانط ، وكان المعنى الخفي لشعار «الحل الحاسم» هو الخلاص من عبء الرشد .

ولكن كيف يبدو الأمر بعد عام ١٩٤٥ ؟ وكيف هو اليوم عام ١٩٨٤ ؟ ألم تتغير الملامح والعلاقات تغيراً حاسماً ؟ ألم نصبح ديمقراطيين أي مواطنين راشدين ؟ بالتأكيد ، ومع ذلك تبقى الشكوك . ولذلك إذا تأملنا عن كثب أو بحثنا على سبيل المثال في موسوعة بروكهاوس Brockhaus تحت كلمة **التنوير** لوجدنا جملاً مثل هذه : «قد أدى الاقتناع بأن كل الناس في الأصل متساوون وعقلاء وجيدون الى ايمان كبير مفرط على الأغلب بفاعلية التعليم وبقدرة الاصلاحات الاجتماعية على تحقيق السعادة وتقدم البشرية . . الاعتقاد في أمان التقدم ورفاهية التقدم أصبح مشكوكاً فيه ، وبالرغم من

ذلك ما زال حتى اليوم هو عصب الايديولوجيات التي تقرر مصير العالم في الشرق والغرب» .
آراء شائكة : في مقال بروكهاوس أيضاً ثناء يحمل نقيضه في طياته ، هذا الثناء موجه الى **جوتهولد افرائيم ليسنج** Lessing الذي يعد الى جانب كانط أعظم رجال التنوير الألمان : «لقد بقي حبيساً لفكر التنوير ولكنه كان عميقاً ومتنوعاً في داخله لدرجة أنه ساهم في التغلب على العقلانية المتعالية أو المعتدة بنفسها والتي أصبحت جامدة كالعقيدة .»
غموض وانقسام : فمن ناحية يردد عصرنا صيحات الحرب في سبيل بلوغ الرشد : لتسقط كل أنواع الوصاية . الشعار هو التحرر : تحرر الطلاب من الأساتذة ، المطالبة بعلم «نقدي» في جامعة «نقدية» – من ذا الذي يعد نفسه اليوم تلميذاً «لأستاذ» ؟ حتى «الصبية» لا ينبغي أن تُطلق عليهم تلك التسمية . عموما ، تحرر الشباب من عامل السن ، وتقدم سن الرشد حتى من الناحية القانونية .
تحرر المرأة من الرجل ، الأقليات من الأغلبيات ، الرجال والنساء الشواذ من المعايير الجنسية الطبيعية ، أو أيضاً تحرر المواطنين من وصاية السلطات ، المبادرات الشعبية التي تنتشر انتشار النار في الهشيم ، الرغبة في المساهمة في اتخاذ القرار وفي المشاركة ، الديمقراطية ليست على أنها شأن من شئون الأحزاب والمؤسسات ، بل الديمقراطية المباشرة التي تنبع من القاعدة .
ومن الناحية الأخرى نرى صغار السن بمجرد أن يشبوا عن الطوق ، يعاودون البحث عن العش ودفئه مرة أخرى ، وعن التعايش الجماعي وعن السكن المشترك . فالشعور مطلوب وكذلك المعايشة . الواحد البسيط هو كل شيء ، وليس المركب المعقد – الالتزام العقائدي بدلاً من الارتياب والابتعاد التهكمي . حتى علماء المستقبل لهم تطور اقتصادي ، وبالمثل الكهنة والمتصوفون وكتّاب الأساطير . ويزداد الأمر وضوحاً عندما ننظر الى النجاح الكبير لبعض الكتب في السنوات الأخيرة لأنها تبين من خلال نجاحها الهائل أنها قد أصابت عصب العصر . لنذكر ثلاثة أمثلة :
أولاً : اريش فروم : «**أنملك أم نكون** – الأسس الروحية لمجتمع جديد» . وهنا يصل المرء الى «الكينونة» الايجابية عن طريق التعمق الصوفي – و«الملكية» السلبية على العكس هي



مارك شاغال : تحـول .

ثمرة العقل الذي أصبح متكبراً ، ومن هنا يتم ذكر صوفيين كقدوة مثل «المعلم إكيهارد» Meister Eckehard بالاضافة الى أنبياء الديانات ومؤسسيها ، بينما لا يدور الحديث حول مفكرين ناقدين أمثال ديكارت وفولتير وكانط أو بوبر .
ثانياً : ميخائيل إنده : «**حكاية بلا نهاية**» . تلك هي الهمسات والهمهمات القديمة الحديثة التي لا يمكن إغفال صوتها تماما ، كما لا يمكن إغفال صور الهروب من تعقيدات عالمنا الحاضر الى الرومانسية والخيال . وبالمناسبة فانه ظهر في تلك الأثناء فرع متكامل من الأدب المتشابه .
ثالثاً : فرانس الت : «**السلام شيء ممكن** – سياسة خطبة الجبل» وفيها : «اتسع عالمنا ولكن طبيعتنا الاخلاقية ستبقى


sueño
la razon
produce
monstruos.

متخلفة» . من منظور التاريخ الفكري يُعد هذا نتيجة للتنوير الذي يفتخر به كل المتحررين في عصرنا . ولكن الحقيقة أن عقلنا لم يتحرر بل انفصل عن المسئولية وعن العواطف والدين والحدس . منذ العصور الوسطى ينمو العلم والتكنيك نمواً فريداً ، ولكن ما نعرفه عن الروح فهو أقل بكثير مما كان يعرفه أجدادنا الذين كان لديهم إدراك واضح بمفهوم «الذنب» . قد أدى التنوير الى تأخير العقل . إن المأزق الذري لطريق مسدود لعقلنا السليم .

دُفِنَ مثل الملـوك

قال بيتر جلوتس رداً على ذلك : «بكل مودة أقول لكم ، إن من لديه عقول منقسمة في أصله منذ محاكم التفتيش حتى الكاردينال شبلمان يجب عليه ألا يعتبر التنوير مسئولاً عن القنبلة الذرية» .

من الناحية التاريخية هناك فارق جوهري بين مفهوم التقدم الاخلاقي للقرن الثامن عشر وبين التقدم الاقتصادي والفني للقرنين التاسع عشر والعشرين . إن إبدال عصر إنساني اخلاقي بزمن اخلاقي وفني ، وتحويل الاهتمام من مشاكل التربية الى مشاكل الانتاج وتوزيع السلع ، بالاضافة الى إحلال الصفوة العاملة الفعالة للتنوير بصفوة القرنين التاسع عشر والعشرين ، كل هذا أدى الى إنتاج العقلانية المحدودة القائمة على المعرفة الآلية ، وإنتاج ذلك العقل الناقص الذي يحاول نقد القديم . ولكن هذه أفكار طائشة وخطيرة تستهدف الدفع بالعقلانية الغربية الى مملكة الأموات والعودة الى العصور الوسطى .

إن التنوير في ألمانيا مهمة صعبة ، ويبدو أن الأمر سيستمر كذلك . ويصور كارل بوبر الحال عند موت كانط قبل ١٨٠ عاماً فيقول :

«لقد توفي في كونيجسبرج Königsberg ، المدينة البروسية الصغيرة التي قضى فيها ثمانين عاماً من عمره . عاش لأعوام في عزلة تامة وفكر أصدقاؤه في الاكتفاء بمراسم دفن بسيطة . ولكنه دُفِنَ كملك وهو ابن عامل من العمال البسطاء . عندما انتشر خبر وفاته تزاحم الناس على بيته . استمر هذا التيار البشري عدة أيام ، وفي يوم الدفن توقفت الحيـاة في كونيجسبرج وتبع النعش أسراب من البشر لا يعرف لها مدى ودقت جميع أجراس المدينة ولم ير مواطنو كونيجسبرج مثل هذه الجنازة ، كما يقول الذين عاصروا ذلك الوقت» .

ولكن ماذا تعني هذه الحركة التلقائية الغريبة ؟ . . أكاد أجزم أن كل دقّة جرس في ذلك الوقت ، أي في عام ١٨٠٤ ، تحت الحكم المطلق لفريدريك فيلهلم الثالث كانت تعني لكانط صدى الثورة الفرنسية والأمريكية ، صدى أفكار أعوام ١٧٧٦ و١٧٨٩ .

أصبح كانط لمواطنيه رمزاً لهذه الأفكار ، ولذا حضروا جنازته ليشكروه كمعلم وكمناد بالحقوق الانسانية وداعية الى المساواة أمام القانون ، وكمتكلم باسم الطبقة العالمية الوسطى والى تحرير الذات عن طريق المعرفة وربما أهم من ذلك الى السلام الدائم فوق الأرض» .

كان هذا منذ زمن بعيد . أنفق الأمريكيون كثيراً للاحتفال بعيد استقلالهم المائتين : إن لدعوة كانط للتنوير بريق تلك الكلمات الشهيرة التي خطها توماس جيفرسون – فهي هنا كهناك تدور حول الحرية ، وبلوغ الرشد ومسئولية البشر الذاتية .

وبالمناسبة فان كانط يتحدث في نهاية مقاله عن السياسة بطريقة مباشرة : سوف تؤثر الرغبة في التفكير الحر وممارسته على طبيعة الشعب لكي تجعله قادراً على خلق الحرية وتقرير قواعد حكومته التي لا ينبغي عليها أن تعامل البشر كتابعين أو بتعبير كانط «كآلة» بل وفقا لكرامته .

لماذا خصصنا إذن عام ١٩٨٤ لرؤية ارويل ، ولم نعر لفيلسوف كونيجسبرج اهتماماً ما ؟ ألا نبحث على الدوام عما يستند اليه تاريخنا ؟

«إن كرامة البشر مقدسة واحترامها والدفاع عنها فرض على سلطة الدولة» هكذا تنص المادة الأولى لدستورنا – فمن أين استقينا هذا ؟

⊳ غويا : حلم العقل يولّد كائنات وحشية .

كارل رادتس / ايفو فرنسل

مناضلان في سبيل العقل

بمناسبة الطبعة الجديدة للرسائل المتبادلة بين إرنست بلوخ وجيورج لوكاتش

بطلان من أبطال التاريخ الفكري الألماني كانا سيبلغان من العمر هذا العام مائة سنة ، هما : جيورج لوكاتش G. Lukaćs (في ١٣ ابريل ١٩٨٥) وإرنست بلوخ E. Bloch (في ٧ يوليو ١٩٨٥) . وانها لمصادفة رائعة أن يتيح إكتشاف غير متوقع في خزانة أحد البنوك في هايدلبرج نَشر رسائل إرنست بلوخ في هذا العام الذي يُحتفَل فيه بذكراه المئوية . حوالي مائة من تلك الرسائل موجهة الى صديقه ورفيق كفاحه جيورج لوكاتش . وإنه وإن لم يكن هناك في هذا التراسل فحوىً جديدةٌ لفلسفة بلوخ ، إلا أنه يَفتح الأفق لنظرةٍ في عملية نشوء عمل بلوخ الضخم[1]، ويُظهِر إرتباط هذا العمل بشخص وحياة مؤلِّفِه ، وأخيراً فانه يُبين أيضاً العلاقة المتناقضة وجدانياً القائمة بين المفكرَين العظيمين ، والتي أدت في سنوات متأخرة الى جفوةٍ شخصية بينهما . وتُوضِّح المراسلةُ بين بلوخ ولوكاتش بجلاءٍ كيف كان هذا الجفاء المتأخر راسخاً فعلاً في هذين الطبعين المختلفين عن بعضهما أيَّما اختلاف .

كان جوهر الفن عند بلوخ المبتهج بالحياة هو القلق وعدم الاكتمال ، حيث أنه كان يَعتبر أن «العمل الفنيّ الرائع لا يبدو أبداً كذلك» . أما من وجهة نظر لوكاتش (الابن الوحيد وسليل أحد بيوتات النبل والثراء في بودابست ، والذي آثر منذ نعومة أظفاره الزهد في الحياة) فقد كان جوهر الفن عنده هو الانسجام والصرامة الكلاسيكية ؛ لقد قال عنه ماكس ڤيبر M. Weber : «كانت غاية الفن القصوى بالنسبة للوكاتش هي التحرر من الحياة لا التحرر **فيها**» . وبينما يمكن إعتبار بلوخ واحداً من معتنقي فلسفة إفلاطون بين علماء الثقافة الماركسية «الماركسيين» ، إذ ان فكره كان مهتدياً على وجه الخصوص بمعالم التراث المثالية العظيمة المفعمة بالأمل ، كان لوكاتش على الجانب الآخر دائماً أشد حذلقةٍ ومبالغةٍ في الدقة عند دراسته للتقاليد المأثورة . غير أن الصفة التي يشتركان فيها هي الالمام العميق بأعمال الشعراء والمفكرين الألمان ، والمقدرة على المعرفة الجامعة الشاملة للتيارات الفكرية ، على نحو لا لم يعد له نظيرٌ في الجيل الذي يعيش ويتولّى مهمة تلقين العلم في يومنا الحاضر .

إشتهر جيورج لوكاتش ، الذي درس في هايدلبرج وباريس وبرلين ، بمؤلفه عن **نظرية الرواية** عام ١٩٢٠ الذي كان في بداية الأمر ملتزماً في جوهره بالمثالية الفلسفية . وقد أصبحت

إرنست بلوخ .

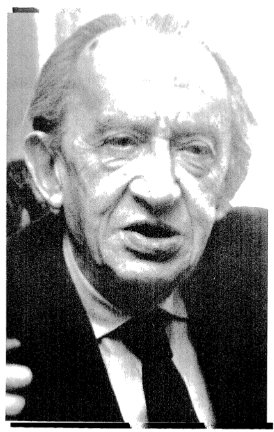
١) بعمله المُسمّى Experimentum ، أي «التجربة الانسانية» أرسى بلوخ وعمره ٨٩ سنة اللبنة المتمِّمة لصرح كيٍّ فكري موسوعي ، كان مُصَمَّماً منذ البداية ليكون «نظاماً» .

هذه المحاولة التاريخية حجر أساس في تفكيره فيما بعد . «الرواية هي صورة عهد التورّط الكامل في الإثم ، ويجب أن تظل الصورة السائدة ، طالما بقي العالم تحت سلطان هذه الأجرام السماوية» ، هكذا صاغ لوكاتش كلماته بروعة في نهاية مقاله . كان وَطَرُ لوكاتش ومأربه الاهتداء الى الكيفية التي يتحقق بها إظهار الحقيقة عن طريق الفن والشعر والفكر . إنه السؤال القديم قِدَم الأزل عن العلاقة بين الكون والوعي مقاله . كان هدف لوكاتش الاهتداء الى الكيفية التي يتحقق بها إظهار الحقيقة عن طريق الفن والشعر والفكر . إنه السؤال القديم قِدَم الأزل عن العلاقة بين الكون والوعي الذي شغل بشكله الماركسي المتميّز المفكّر النظري لوكاتش ما ينيف عن عشرات السنين خلال حياته . وقد مرّ الطريق المؤدي الى هناك بعملٍ تم إنتاجُه في عامي ١٩٢١/١٩٢٢ وظهر تحت عنوان : «التاريخ والوعي الطبقي» Geschichte- und Klassenbewußtsein . وقد ساهم هذا العمل بصورة إنسانية في التوجيه اليساري لكثيرٍ من المثقفين الأوربيين . وفي نظرةٍ ألقاها فيما بعد – عام ١٩٦٢ – على الماضي ، تنصّل لوكاتش من هذا العمل الى حد بعيد . كان فكر لوكاتش يدور مراراً وتكراراً حول البرهنة على أن الملاحظات التي نعيها يومياً في العلم والفن تعتمد دائماً على نفس الحقيقة الموضوعية الواحدة . إن قراءة هذه النصوص ممتعة – أيضاً بالنسبة لشخصٍ مضطرٍ على ضوء العلوم الطبيعية الحديثة الى دحض تلك الدعوى بوجود حقيقةٍ موضوعية لا مراء فيها .

عندما عاد جيورج لوكاتش عقب الحرب العالمية الثانية الى وطنه المجر أصبح منذ ذلك الحين حجّة لها اعتبارها ، إلا أنه كان يُنظَر إليه بعين الارتياب والشك من قِبَل الكتلة الشرقية . وبسبب تنديدُه بالانتاج المبتذل للواقعية الاشتراكية لم يكن له أصدقاءٌ في موسكو . إن عمله الأدبي **خراب العقل** Die Zerstörung der Vernunft الذي ظهر في السنوات الأخيرة من حياته ، لجدير بالمرء اليوم – أربعون عاماً بعد إنتهاء الحرب – أن يقرأه مرةً أخرى . إنه يُعلّمنا أنه «لا يوجد مذهب في الحياة مُنَزّهٌ من الإثم» .

ضرورة تحطيم ظاهر العالم القديم ، لكن لا بد رغم ذلك من إنتشال أمله المدفون لكي يفضي به الى عالم جديد . ذلك ما كان يراه لوكاتش كواجب للفن . إنه يتفق في هذه الرؤية مع بلزاك لا مع فلوبير ، ومع توماس مَن لا مع بريخت ولا مع بكيت بالذات على الاطلاق . «الانسان هو كائنٌ خلق من أجل تحقيق الانسجام» ، هكذا كان يقول لوكاتش .

إما إرنست بلوخ فإنه كان يرى أن فرصة الفن تتمثل في إعتصار بُشرى عالَم جديد تماما من أنقاض العالم القديم المتخرّق الهالك . كأن الرأي السائد إبتداء من كافكا عبر بيكاسّو حتى أيسلر وبريخت ، ومن جيمس جويس عبر ماليڤيتش حتى پروكوفييف هو أن : «الانســـان ليس متكاملاً في عطائه الفني حتى الآن» . ولذلك فان العمل الفني الحقيقي بالنسبة لإرنست بلوخ يظل دائماً شَذْرَة ، إنه لا يستطيع إلا أن يكون تقريبياً . إنه محاولة لفك غموض حقيقة دفينة وفقاً لرأي فرانس مارك ، الذي كتب مرة يقول : «الصور هي تمثيل لانبثاقنا وظهورنا في مكان آخر» ، خلف كل شعر ، خلف كل نثر يكمن شيء لا نعرفه : «حيّة الفردوس هي عندئذ بمثابة دودة لإلهـــة العقل» ، هكذا يكتب بلوخ



لوكاتش .

في تحليله لرواية بريخت «القرصان – چني» - Seeräuber Jenny . المادة في مفهوم المادية لبلوخ هي «**منبت الأشياء**» . إن بلوخ متفق مع قول فلوبير : «Ce qui n'est pas formé, n'existe pas» أي «كل ما ليس مشكّلاً ليس له وجود» . كان بلوخ مفتوناً بالشائعة الاسطورية التي تدّعي أن ميخائيل أنجلو كان يرى في كل كتلة رخام أشكالاً «نائمة» في أعماقه : إن المادة ليست «كياناً» بل «إمكاناً» .

تفكير بلوخ الخيالي اليوطوبي ، «أحلامه الى الأمام» ، «مبدأ الأمل» الذي كان يؤمن به ، كل ذلك يستمد قوته الحافزة من فكرة «**الامكانية**» هذه . نظرية بلوخ الرئيسية هي بالتالي الاقتناع بأن تشوّق المادة لأن تصبح شكلاً هو خِليّة النمو المنبتة للوعي وللعلم النظري ومن ثم للتطبيق العملي . ولكن نظراً لأن الفن لا يمكنه أن يكون إلا تقريبياً – أي عملية إنسيابية الى ما وراء حدود المادة – فإنه لا ينبغي له أن يكون الاثنين معاً أبداً : لا ينبغي له أن يكون إنعكاساً ولا أن يكون كاملاً . لأنه لو كان إنعكاساً للموجود لبقي دون سرّ ، ودون بُعد . ويعني ذلك إستناداً الى المراجع الأدبية : المؤلفون الذين إتبعوا قاعدة الانعكاس «لا يسمعون سوى ما هو عادي وسطحيّ ، إنهم لا يسمعون ما يحدث» . غير أن الفن الذي يظهر دائماً أشياء مخفية ومستترة يحوي في جوهره القدرة النضالية على السير قدماً الى الأمام – وهو لذلك مفهوم سياسي بصفة رئيسية ، والى حد ما ممارسةٌ ثورية . الفن في وجهة نظر بلوخ ليس له وظيفة التزيين . إنه أمل يريد أن يتفجّر . وهو لهذا لا يستطيع أن يخدم ولا أن يؤيّد . من واجب الفن أن يكون معادياً لكل ما هو موجودٌ وقائمٌ ، يتحتم عليه أن يفتح بالتفجير الشقوق والصدوع .

على نحو مختلف تماماً يفهم جيورج لوكاتش واجب الفن . إنه يرى في شهوة **التدمير الخلّاقة** لدى بلوخ أثراً من جنون العظمة ومن غرابة الأطوار . ومن موقفه السلبي من الأدب الحديث بدأ من قبل مع المذهب الطبيعي . ويرى لوكاتش أن تطور المذهب الطبيعي عبر المذهب التعبيري نحو صامويل بكيت كان طريق ضلالٍ نحو التدهور لا مثيل له . ذلك لأن : الخير والجمال من وجهة نظر لوكاتش متطابقان .و دعواه الى الترابط الفني مناقضةٌ تماما لمفهوم بلوخ حول الفن . إنها دعوى تطالب **بالكُليّة** . وهذه الكليّة لا يجدها لوكاتش إلا في الرواية الواقعية – وعلى وجه الخصوص في رواية القرن التاسع عشر حتى توماس مَن أو في الدراما الكلاسيكية (أو المقلِّدة للطراز الكلاسيكي) . ويرى لوكاتش في هذه الكليّة إستبدالاً أو إلغاء للواقع البغيض بآخر أحسن . ان هدف لوكاتش اخلاقي ، يطمـــح الى تغيير الواقع ، وبالتالي الحياة أيضاً عن طريق الفـــن .

هنا يكمن اختلاف لوكاتش ليس فقط مع بلوخ ، بل أيضاً مع بريخت . ذلك لأن بريخت لا يريد تغيير الحياة ، بل يودّ تغيير المجتمع . يرى بريخت أن جوهر الفن يكمن في تمثيله لتناقضات الواقع . في هذا الاختلاف الأساسي بين لوكاتش وبلوخ لا يتجلى التناقض في مفهوم كِلا المفكرَين فحسب ، بل يظهر فيه أيضاً التفاوت الكامل في الصورة الانسانية لكلَيهما . وقد تركت هذه الصورة الانسانية المختلفة في السنوات المتأخرة أثرها بشدة أيضاً في العلاقات الشخصية بين من كانا في الأصل صديقين ، ثم تقطّع وصلُهما ودبَّت الجفوة بينا أكثر فأكثر على مدى حياتهما .

ان الرسائل المتبادلـة بين هـذين الرجلين العظيمين من رجالات الفكر في القرن العشرين ، والتي نُشرت حالياً – في عام الاحتفال بالذكرى المئويـة لهما – ولأول مرة باللغة الالمانية هي مكاتبة امتدت لفترة من الزمن بلغت سبعين سنة (من ١٩٠٣ حتى ١٩٧٥)[٢]. وهي تعطي نظرة عميقة في تطوّر عملية الشقاق الذي دبَّ بين هـذين المحررين لتلك الخطابات ، وفي تركيب الشخصية المختلف تماماً لكل منهما . وأكثر من ذلك أيضاً فإن خطابات إرنست بلوخ الى جيورج لوكاتش والى غيره من المعاصرين – من أمثال ڤالتر بنيامين وماكس هوركهايمر وتيودور أدورنو وهربرت ماركوزه وغيرهم – تُطلع على شبكة من العلاقات الوشيجة بين أساطين الفكر في ذلك العهد ، لها أهمية بالغة بالنسبة لتاريخ الفكر في القرن الذي نعيش فيه . وقد احتلّ إرنست بلوخ بين هؤلاء المفكرين مركزاً لم يكن وسيطاً فحسب ، بل كان أيضاً أساسياً ورائداً ، نظرا لما كان يتمتع به من مكانةٍ بارزة . أحد الأسباب التي أدت في سنوات لاحقة الى القطيعة بين بلوخ

---

٢) Ernst Bloch: Briefe 1903–1975. Herausgegeben von Karola Bloch u. a., Suhrkamp Verlag, Frankfurt/Main ، ٢٤٢ صفحة .

وصديق صباه جيورج لوكاتش ، عبّر عنه بلوخ في خطاب وجّهَهُ الى لوكاتش على النحو التالي : «. . . لأنه لا تتوفر بينك وبيني على الاطلاق علاقة روحية ممكنة ولا رؤية مشتركة ، ولأنك تستطيع على نحو أسهل بكثير مني الفصل بين الكيان والعمل» . إلا أن عدم القدرة هذه على الفصل بين الكيان والعمل قد أوصل إرنست بلوخ أيضاً الى المجد : إن خطاباته تقدِّم دليلاً على هذه الوحدة بين الشخص والعمل . إذ أن نظرية الأمل تقوم وتسقط بعمل نبيهما ؛ ما يبرق من ثنايا تلك الرسائل والأقوال الصادرة عن بلوخ ، والتي تبزغ غالباً برمتها من غياهب ظلمة اللحظة التي يحياها إنما هي «أحلام بحياة أفضل» لشخص طَوَّحَت به الطوائح ، بيد أنه يُلق مع ذلك نظرةً على المستقبل مفتوحة بعزيمة إصرار لا تعرف الكلل وبطاقة إبداع خلاّقة قاهرة ، دون أن يُضحّي مع ذلك بالماضي ولا بالحاضر – مثلما فعل بلوخ أيضاً في أعماله : العالم الذي قاضاه وأدانه لم يتخلّى عنه أبداً ، بل كان يحتفظ دائماً بشيء من سحر الأشياء التي قام هو بتجريدها من السحر . هذه النزعة الى التوفيق والتوسط في تفكيره كانت على الدوام متأصلة أيضاً في علاقاته الشخصية التي تحكي خطاباته تاريخها المليء بالتوتر والاثارة .

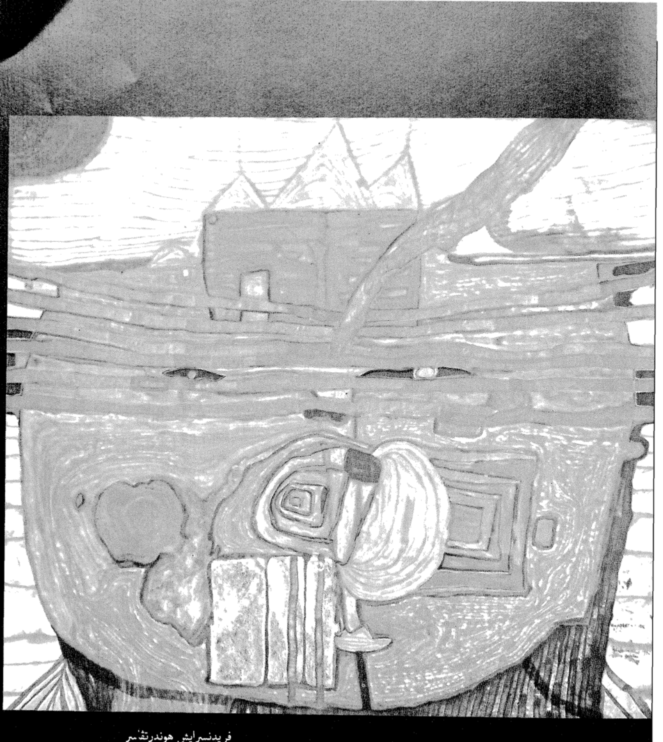
☆



باول كلي : إدراك الهدف .



فريدنسرايش هوندرتفاسر : رأس ذو بُعدين .



فریدنسرایش هوندرتڤاسر

إيڤو فرنتسل

محاولات لانقاذ العقل

كتاب يورغن هابرماس « خطاب الحداثة الفلسفي»

Jürgen HABERMAS: Der philosophische Diskurs der Moderne. Zwölf Vorlesungen. Suhrkamp Verlag, Frankfurt am Main.

منذ أبرز نيتشه هيئة الانسان الأخير في كتابه «هكذا تكلم زرادشت» أخذ كل من الفلسفة والشعر والنقد الثقافي ، وبصيغ متنوعة ومؤثرة أحياناً ، في الاعلان عن نهاية العصر الحالي . فقد وصف أوزڤالد شپنجلر سقوط العالم الغربي ، كما تكهن هايديجر بنهاية الميتافيزيقا ونادى ألفرد ڤيبر بتوديع التاريخ القائم ، كما طرح رومانو غوارديني موضوع نهاية العصر الحديث . ويعرب هوفمنزتال وريلكه وكافكا في نتاجهم ، وكل بطريقته الخاصة ، عن وعي قوي جداً بنهاية العصر ، وكما يبدو ، فان عصر العقل ، الذي ابتدع بكثير من الاندفاع والحماسة المدنية العالمية الحالية ، المحددة بالطابع الأوروبي وذلك منذ عهد التنوير باسم التقدم والحرية والمساواة والتسامح ، قد استهلك وأشرف على نهايته . وتبدو الكوارث السياسية لقرننا الحالي في مفعولها وكأنها أدلة وبراهين مؤيدة لتنبؤات المنذرين والانبياء السابقين . غير أن هذا الوداع الذهني لحداثة الذي نستطيع ملاحظته في كل مكان اليوم لا يتعلق إلا بتصور العصر لذاته ثقافياً ، وليس بديناميكيته السياسية والاقتصادية التي ما زالت وثابة لا يعيقها عائق .

غير أن يورغن هابرماس يسعى في كتابه الجديد الى التدليل على أن الجهود الفلسفية للتغلب على الحداثة وللافتراق عنها لم تؤد حتى الآن إلا الى طرق مسدودة وخطرة ، فهو ينبري لكشف النقاب عن التناقضات في تفكير هايديجر ، وكذلك في تفكير معلّمَيه هوركهايمر وأدورنو . وهو يخوض النزال الفكري في مواجهة دِرّيدا وفوكو وباتاي – ثم يهاجم من جديد خصمه الدائم نيكلاس لومان .

ويجدر بنا أن نقول هنا هذه الكلمة مقدماً : إن من أراد لنفسه أن يطلع على النصوص التي لا تخلو من الصعوبة لفصول الكتاب المتداخلة بدقة وعناية تامتين ، فانه سيلقى متناً خلاباً ،وكتاباً من كتب الفلسفة الألمانية الهامة القليلة في الأعوام العشرين الماضية ، أي منذ ظهور كتاب أدورنو «الجدلية السلبية» .

ان كتاب «خطاب الحداثة الفلسفي» مؤلَّف يسعى الى مواجهة «تدمير العقل» ، ويذكرنا في هذه المناسبة بمؤلف شهير لجيورج لوكاش . غير أن هابرماس ، خلافاً للوكاش ، لا يقيس إنجازات التقاليد بمقاييس الماركسية الوثوقية . بل أن رهافة تحسسه لمواقف المفكرين الذين يتناولهم بالنقاش شديدة جداً . فهو لا يتمكن من عرض آرائه بنبل وبراعة تربوية متناهية فحسب ، بل ينجح كذلك في استخراج تناقضات المفكرين الذين يعالجهم وتورطاتهم الفكرية التي لا مخرج منها ، وذلك من خلال نصوصهم نفسها . فهابرماس هنا يأخذ خصومه مأخذ الجد ، ويوليهم الاحترام والتقدير ، ويجرد حججه النقدية ضدهم من كل منازعة شخصية .

إن من أراد أن يوجه هجوماً فلسفياً على لاعقلانية الأعوام المئة الأخيرة ، فعليه أن يعود الى ما وراء نيتشه ويبدأ هناك بأسئلته ، حيث كان العقل المتنوّر يحافظ على مركزه الذي لا يعترضه منازع ، أي عند هيجل . فهذا ما يفعله هابرماس تماما ، كما فعل قبله كارل لوڤيت أو إرنست بلوخ أو جيورج لوكاش أيضاً . إلا أن على المرء ألا ينخدع من هذا المدخل التقليدي ، إن لم نقل «العتيق البالي» . إذ أن هابرماس يجادل ويقدم الحجج ، وهذا ما لا يتضح إلا في نهاية كتابه طبعاً . وذلك دوماً بالنظر الى منطلق فلسفي جديد خاص به . لقد اكتشف هيجل «الذاتية» كمبدأ للعصر الحديث – عصر العقل . وقد شرح الذاتية بمفاهيم كالحرية والتفكير . وقد حصل البشر في طريقهم من عهد الاصلاح البروتستانتي عبر عصر التنوير وحتى الثورة الفرنسية ، على الحرية ، وبدؤوا في التطور كأفراد كما لم يحدث ذلك من قبل إطلاقاً ، وحصلوا على حق النقد ، وعدم الاعتراف بشيء إلا بعد الفحص والتدقيق ، وأصبحوا قادرين بذلك على الاستقلال في التصرف ، بحيث أصبح كل شخص مسؤولاً عما يفعل . وقد أدت الفلسفة كفكرة تعرف نفسها ، أي كتفكير خالص ، أدت فوق ذلك الى فهم العصر لذاته . ويقول هابرماس بحق أن هيجل كان أول من جعل التاريخ المعاصر موضوعاً فلسفياً ، غير أنه لم يحدد جوهر العصر الحديث فحسب ، بل أنه شمل بتفكيره أيضاً تناقضات الحداثة ونزاعاتها ومظاهرها الاغترابية . وقد أدى الفصل الحاسم بين الايمان والعلم الى نشوء العلوم الحديثة ، وبذلك الى السيطرة التقنية الاقتصادية على الأرض بصورة تزداد كلية وشمولاً . وقد انهارت وحدة

صورة العالم التي كانت سابقاً تقوم على الايمان ، وبدأ كل من الاقتصاد والدولة ، والعلم والفن ، والدين واالاخلاق ، يستقل شاقاً لنفسه حياته الخاصة . كذلك لم تستطع نظرية «العقل التوفيق» التي ابتدعها هيجل أن تحول دون أن يبق كل تنوير جدلياً ، ودون أن يحمل كل تقدم في طياته خبرات جديدة للجانب السلبي .

بهذه الموضوعات المعروفة في حد ذاتها والمطروحة بوضوح يرى هابرماس افتتاح خطاب الحداثة . ومن مقومات هذا الخطاب «الذي ما زلنا نخوضها حتى اليوم دون انقطاع ، الادراك القائل بأن الفلسفة أشرفت على نهايتها» . ومما لا شك فيه أن الفيزياء وعلم الأحياء وعلم النفس والعلوم التاريخية قد أطلقت لأول مرة مواضيع تمس النظرة الى الكون في القرن التاسع عشر ، فأثرت على كيفية إدراك الزمن دون وساطة الفلسفة . وقد واجهت الفلسفة المعاصرة بهذه الصورة هذه التحديات بطرق مختلفة . ولكن بينما لم يكن هيجل ولا تلامذته المباشرون من اليسار أو اليمين يشكون في إنجازات الحداثة ولا يودون التشكيك في مبدأ الحرية الذاتية القائمة على العقل ، فقد اختلف الأمر عن ذلك لدى نيتشه .

لقد أراد نيتشه أن يكون أول من ينسف العقلانية الغربية ويفجرها وكما يقول رأي مركزي لدى هابرماس ، فان اللاإنسانية عند نيتشه هي التحدي الحقيقي لخطاب الحداثة . وبذلك يصبح نيتشه بالنسبة الى هابرماس «محور» الدخول الى ما بعد الحداثة ، ونقطة الارتكاز .عبع التطورات الخطيرة التي أدت الى رفض العقل . ولا تبلغ الحماسة الشديدة لدى هابرماس في مناقشته بقدر ما تبلغ في معالجته لآراء نيتشه . فالمفكر ، الذي أراد أن يُحل تفكير الأسطورة الديونيسية والنشوة السكرى محل التصرف العقلاني الهادف والخاضع للتقليل العلمي ، تخلّى في نقده للحداثة عن الاحتفاظ بمضمونها التحـرري .

إن نظرة نيتشه هذه محدودة جداً ، إلا أنها تظل نافذة المفعول بالنظر الى تقبّل الأجيال التالية وفلسفتهم . ويدلل هابرماس على ذلك بصورة رائعة في تفسيره لآراء هايدجر الأخيرة ، الذي يقوم بمحاولة التفوق على نيتشه في تدميره للعقل . وفي هذا السياق تندرج كذلك الفصول الخاصة بالفرنسيين باتاي ودرّيرا وفوكو ، الذين يستوحون آراء هايدجر فيقدمون صنوفاً أخرى من معابر الهروب الممكنة الى اللاعقلانيـة .

وقد يصاب المرء بالعجب في بداية الأمر لعدم تورّع هابرماس عن نقده ، كتلميذ لامع ، لمعلميه هوركهايمر وأودورنو ، مؤلفي كتاب جدلية التنوير ذلك الكتاب الذي أحاطه جيل شباب ١٩٦٨ وستين بقدسية رفيعة . إلا أن هابرماس يُبدي بصورة مقنعة ، ولأول مرة على الاطلاق ، كما يبدو لي ، أن مؤسسي المدرسة الفرانكفورتية مدينان لنيتشه بأكثر من «مجرد استراتيجية نقد ايديولوجي موجه ضد الايديولوجيا بالذات» ، إذ أن هوركهايمر وأدورنو لا ينصفان المثل العقلانية للحداثة الثقافية ، ولكن هذه المثل بالذات هو الذي يريد هابرماس أن يتمسك بـه . ويعتبر هابرمـاس اليوم وقوع هوركهايمر وأدورنو في مفارقة يقّران عليه ، وذلك في المجالات التي أراد المفكرون الآخرون أن يقدموا تعليلات نهائية لها ، بأنهما أنهكا قواهما في روح العناد وأنهما ضحّيا بمطلب العقل في القدرة على توجيه الحياة ، تماماً كما فعلت نظريات سياسة القوة التي طرحها أتباع نيتشه . ومن المحتمل أن يثير هذا الفصل ، الذي أعتبره الحدث الحقيقي في الكتاب ، زوبعة من المعارضة والنقاش .

إن نقد هابرماس سيُقاس بالدرجة الأولى بالمخرج الذي يُعدُّه بنفسه لحل أزمة الفلسفة . وكما أبدى بصورة مقنعة ، فان النقد الجذريّ المتطرف للعقل يفرض ثمناً باهظاً جداً من أجل توديع العصر الحديث . ومن الناحية الأخرى فان هابرماس يدرك بوضوح أن مسألة إعادة الاعتبار لمفهوم العقل قضية تنطوي على «المجازفة» . إذ لا نستطيع العودة بكل بساطة الى ديكارت وكانط وهيجل .

ولذا فان هابرماس يحاول إيجاد المخرج عبر نظريته الخاصة بالتصرف الاتصالي التفاهمي ، وهي النظرية التي سبق أن شرحها في مؤلفاته الأخرى . فالبشر مرتبطون في عوالم حياتية يتصرفون داخلها بفرض التفاهم في شبكة من العلاقات والمضامين والرموز الاشارية . وبذلك لا بد من إمكان تحقيق الاتفاق العقلاني ، حتى وإن ظل مثل هذا الوفاق معرضاً لخطر بسبب الالتباسات اللغوية .

وهكذا لا تنقذ ذاتية هيجل المجردة ، وإنما مجال التصرف العقلاني لجميع الذوات المنفردة التي يحتاج بعضها الى البعض الآخر ، والتي لا تختفي – كما هو الحال لدى لومان – في أنظمة غير شخصية . وكما يعلم هابرماس نفسه ، فان هذه النظرية تبدو مترمتة بعض الشيء . وهي تخطيط مثالي يعتمد على الأمل في ضرورة حصول العقل في هذا العالم على فرصة البقاء والوجود بكل تأكيد .

أما ماذا سيكون عليه التصرف الاتصالي التفاهمي في التطبيق العملي بالفعل ، فهذه مسألة تقتضي من المؤلف إيضاحاً أكثر جلاء في أعماله التالية .

وعلى ذلك سيتوقف مدى مقدرة هابرماس على متابعة خطاب الحداثة ومجابهة خصومه بصورة فعالة .

في العلاقة بين الأدب والعقـــــل

العلم! النبالة الجديدة! التقدم. العالم يسير الى الأمام! لما لا يلوي رأسه الى الخلف؟!».

(رامبو – فصل في الجحيم)

البحث في مسألة العلاقة بين الأدب والعقل موضوع واسع. بل أنه يبدو قديماً وأكاديمياً. ومنذ أمد بعيد خاض فيه المثقفون والفلاسفة ودار جدال طويل حوله. والآن مرّ حوالي ٢٤٠٠ سنة منذ أن تحوّل سقراط الى أثينا لحضور احتفالات دارت خلالها مناقشات حادة حول مفهوم العدالة. وكعادته غاص سقراط عميقاً في الموضوع وذهب الى حد طرح مفهوم الدولة العادلة والعناصر المكونة لها. وفي كتاب «البوليتيا» Politeia يتساءل أفلاطون عمّا اذا كان ممكناً قبول الشعراء والأدباء في هذه الدولة العادلة. وفي المرتين إجيب بالسلب على هذه المسألة. ذلك أن سقراط Sokrates ومن بعده أفلاطون Platon يعتقدان أن الشعر والأدب لا يمكّنان من تأسيس دولة تعتمد على المفاهيم العقلانية، إذ أنهما لا يلتقيان في شيء مع العقل وتطبيقهما يتعارض مع أسسه وقوانينه. وقد ظلت هذه الفكرة قائمة ومؤثرة الى حد العصزر الكلاسيكية، أي الى القرن الثامن عشر. في هذه الفترة كان التنوير الأدبي في أوج قوتـه، غير أن روســو Rousseau عــاد الى نبش تلك الأطروحات القديمة والمتشعبة وأعلن بصوت عال أن الأدب هو المسؤول عن انفصام العلاقة بين الطبيعة والعقل وبين السعادة والفضيلة، هذا الانفصام الذي ازداد استفحالاً بحلول كارثة العصور الحديثة. وما اعتقده سقراط ذو النزعة الافلاطونية اكتشافاً كبيراً (ذلك أن رفضه للأدب خارج نور العقل ليس سوى طوباوية جديدة)، بدا عند روسو ثقيلاً وشكلاً من أشكال الحنين الى الماضي البعيد. ويعتقد روسو أن الانسان المتحضر حين يفقد عقله وذاته يصبح إنساناً ضائعاً وتصبح السعادة صعبة المنال بالنسبة اليه. كما يعتقد أيضاً أن الأب يدفع القرّاء دائماً في اتجاه الأوهام والأكاذيب الاجتماعية ويطوح بهم في عالم لا علاقة له بالعقل اطلاقاً. وبذلك تسيطر قوى أخرى على حياته ويصبح هو مجرد لعبة لا حول له ولا قوة.

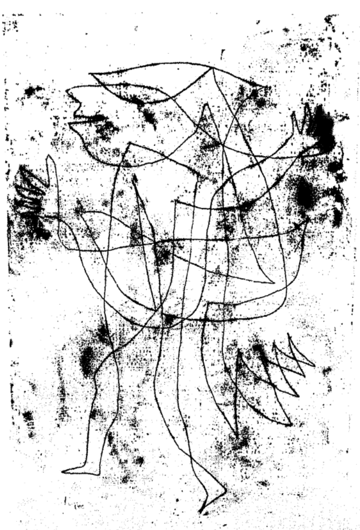
ويكاد يكون موقف كانط Kant مطابقاً لموقف روسو، ذلك أنه يرى أن الأدب والفن هما دائماً خارج دائرة العقل النظري أو العقل التطبيقي الخاضعين لضروريات وأهداف واضحة. ولذا فان الأدب حسب رأيه لا يجب بأي حال من الأحوال أن ينتصب مدافعاً عن العقل النظري ولا عن هذا العقل الأدوي الذي يسمّيه **العقل التطبيقي** والذي كان مهيمناً على الفكر العلمي خلال القرن الثامن عشر عند بدء الثورة الصناعية. ومن الضروري – لمعالجة هذه المسألة – العودة الى سقراط وروسو ثم الى سارتر Sartre وبرتولد برشت B. Brecht خاصة في فترة شيخوخته للعثور على أفكار جديدة حول مفاهيم ما يمكن أن نسمّيه بـالأدب العقلاني وأيضـاً حول الاتجاهـات الكبرى في الأدب المعاصر. والملاحظة التي يمكن تأكيدها في هذا المجال هي أن القيمة الفنية للأثر الأدبي لا تخضع إطلاقاً للقوانين والأساليب العقلانية. من ذلك أننا نستطيع القول بأن «مذكرات حلزون» لغونتر غراس Günter Grass أكثر عقلانية من روايته «طبلة الصفيح» ولكنها ليست أكثر منها قيمة على المستوى الفني. وكذلك الأمر بالنسبة ل «هرمن ودوروتي» و «آلام ڤرتر» لغوته Goethe.

ودون أن نفكر كثيراً نحاول أن نقبل ما أراد أن يؤكده لنا سقراط وهو أن الأدب لا علاقة له بالعقل إلا اذا ما تمّت «تنقيته» و «تصفيته» من كل شائبة لاعقلانية. وهو يقول في كتاب «البوليتيا» في أنه اذا ما كان ملزماً على الشعراء أن يكذبوا فلا بد أن يكذبوا بطريقة جميلة. ولا بد أن يمتنعوا عن إظهار الآلهة في صورة بشعة أو فظيعة وأن يكون الجحيم في كتاباتهم غير مخيف والأبطال كائنات ملائكية وبريئة. ويعلّل سقراط رؤيته الايجابية والمتفائلة هذه بأنه اذا ما خالف الشعراء ذلك فان الكذب يصبح شائعاً بين النـاس وإن الانسان ينفصل عن الآلهة وأن لا أحد يصبح راغباً في الموت أو في أن يكون بطلاً! غير أننا حين نتمعن ملياً في ما قاله سقراط نكتشف أن رؤيته الايجابية والمتفائلة تخفي جهاز رقابـة فظيع يحتوي على كل أسـاليب المنع الاقطاعيــة



مارك شاغال : الشاعر في الساعة الثالثة والنصف ، ١٩٧١ .

باول كلي : مجنون صغير في حالة ذعر ، ١٩٢٧ .



والكهنوتية والفاشية والشيوعية . وما يعيبه سقراط على الأدب هو المحاكاة : محاكاة الصواعق والرياح والآلات الموسيقية وحتى نباح الكلاب وأصوات الطيور . وهذه المحاكاة تبدو في نظر سقراط شبيهة بالتيار الجارف الذي يقتلع الانسان من جذوره ويطوّح به بعيداً عن مواقعه . كما أنها تدمّر وحدة الدولة المثالية القائمة على العقل والسعادة والفضيلة . ولهذا السبب فان سقراط يرى أن الشعر خيالي وكاذب ودونما التزام بالضروريات الانسانية ، علاوة على أنه يحاول دائماً مخاطبة الأحاسيس البائسة والمتوجعة النائمة في أعماق الانسان كما أنه يدفعنا دائماً الى عالم الوهم والأحلام ويقوّي رغبتنا في الضحك والسخرية من كل شيء حتى من أنفسنا . بل أنه في أغلب الأحيـان يجبرنا على قبول حتى تلك الحالات الشاذة كـــأن يأكل الآباء الأبناء أو كأن يضاجع الأبناء الأمهات .

إن مناهضة الأدب باسم العقل متواصلة الى اليوم ولا يمكن التخفيف من حدتها . غير أن سقراط رغم حدة معارضته للأدب يبدو مزدوجاً . ذلك أننا حين نتعمق في أقواله نتبين احساسه بالينابيع الوحشية للأدب وبالسحر والشعوذة وبكل تلك العناصر التي لم تروّض عقلياً وظلت متوهجة في الاثار الأدبية . كما أن الأدب ظل محافظاً دائماً على جوانبه الواقعية وعلى رغبته في أن يضع الناس على قدم المساواة . فهو يجهل الطبقات والفوارق بين الملوك والمجانين وبين الرجل والمرأة وبين الأجناس والطبقات . ويمكننا أن نقول أن الأدب ولّد على الورق قيم المساواة والحرية والاخاء ، تلك القيم التي جعلها سقراط ومن بعده افلاطون هدفاً للدولة المثالية . إن العقلانية

الافلاطونية لم تحقق هدفها في السيطرة التامة على الحياة وعلى الناس . وهي مثل كل المناهج العقلانية التي أعقبتها فرّت الى قفص من ذهب لكي تحمي نفسها ولكي تحافظ على وجودها كمنهج . وداخل هذه الدائرة – دائرة العقلانية – ليس هناك مكان للشاعر ، هذا الكائن المتنوع والمتعدد والغامض بسحره وخياله الواسع . وهو لا يطرد دونما تقديس . وقد جاء في البوليتيا أن الانسان له قدرة فائقة على التكيف والمحاكاة . واذا ما أقبل الشاعر يوما الى الجمهورية المثالية حاملاً آثاره الفنية فانه سيُعامل كقديس مبجّلاً ومكرّماً . ولكنه اذا ما أراد الاقامة فسيقع اعلامه بان لا مكان له فيها وأنه مرفوض منها ، ثم يرسل الى الجمهورية أخرى ، بعد أن يوضع في شعره الناردين وعلى رأسه تاج من الصوف !

وبالنسبة لروسو الشبيه بدون كيشوت لأنه عاش في عصر غير عصره فان أدب الناس المتعدد النزعات أوجد بدوره جمهوراً متعدد النزعات . ولهذا كان النقد الذي وجهه للفن في القرن الثامن عشر عنيفاً . بل أنه ذهب الى حد اتهامه بأنه عنصر تخريب للحياة وتعتيم للوعي . وهو نقد شبيه الى حد كبير بالنقد الذي يوجهه اليوم الشعراء والكتّاب الى الوسائل السمعية والبصرية . ان الأدب في نظر روسو يدفع الانسان الى الغوص في الأحاسيس السخيفة والى النظر الى نفسه من خلال الآخرين . وهو يحاول أن يبيّن كيف أنه يتعارض مع الحياة وكيف أنه يفرغها من محتواها الحقيقي ليحوّلها بعد ذلك الى مشهـــد سخيف . وباختصار فان مستهلك الأدب في نظر روسو كائن فارغ وتائه وبعيد عن ذاته وعن المجتمع وعاجز عن الفعل . وهو رمز للبؤس في حياة مستلبه .

بعد روسو بقرنين وفي فترة بدأ يأفل فيها نجم الأدب الحديث برز على المسرح رجل أراد أن يبتكر أدباً خاصاً بأبناء هذا العصر العلمي . إنه برتولد برشت الذي كتب كتاباً صغيراً حول المسرح عنوانه Kleines Organon وذلك سنة ١٩٤٨ ، أي بعد سنة من صدور «جدلية العقل» لأدورنو Adorno وهوركهايمر Horkheimer وكتاب سارتر «ما هو الأدب» . وقد وضع برتولد برشت كل قدرته الفنية في هذا الأثر وكأنه كان يريد أن يكون كلاسيكياً قبل موته . إن الكآبة لا يمكن أن توجد الا في الشعر . ذلك أن نوم العقل وحده يسمح بظهور مثل هذه الأحاسيس المخيفة . أما في المسرح فانه من الضروري أن يتوفر الوضوح التام . وأول ما قام به برخت هو تنقية مسرحه – أو بالأحرى برنامجه المسرحي – من فظائع المحاكاة . وذلك بأن أخضع كل شيء للتقنية بحيث لم يعد هناك فرق بين الممثل والمؤلف والمتفرج . كما أن المشاهدة لا تولد الأحاسيس أو العواطف ولكنها تدفع الى التفكير والتأمل . ان المسرح في رأي برشت يمكن أن يكون وسيلة ترفية ، ولكن هذه الترفيه خاضع لحركة الفكر حتى ولو كانت هذه الحركة خفيفة وبطيئة . وهكذا حقق برشت ما كانت ترغب في تحقيقه المثالية الافلاطونية ، أي الوحدة بين العقل والسعادة والفضيلة وذلك مـن خلال الوحـدة بين العلم والترفيـه والمسافية .

حاول برشت انطلاقاً من تقاليد الأدب التنويري الأوربي أن يجعل من الأدب وسيلة تنويرية وبيداغوجيا اجتماعية . ولهذا يمكن اعتباره في هذا المجال وريثاً شرعياً لديدرو و ليسنج . وبادخاله العلم في المسرح (يسمّي برشت مسرحه مسرح العصر العلمي) أجهد برشت الشاعر نفسه لكي يصعد فوق كرسي التنوير . وأمام الفاشية الهاجمة بشراسة وعنف كان عمل برخت هذا شكل من أشكال مسؤولية الفن للدفاع عن الحرية والقيم الانسانية . ولكن ثمن هذا الموقف كان غالياً جداً . إذ ان الفن الذي حاول أن يقوم مقام الأحزاب السياسية والتنظيمات النقابية والمؤسسات الاجتماعية والثقافية وأن يلعب دوراً بيداغوجياً كان قد أجبر في كثير من الأحيان على مغادرة ميدانه معوّضا بذلك العلوم الاجتماعية التي كانت غائبة عن ألمانيا في ذلك الحين . وفي كثير من مسرحياته حاول برشت تفسير مفهوم الأزمة الرأسمالية الدائمة لجمهور البورجوازي وأيضاً تحليل الفاشية تحليلاً مادياً . ولكن محاولاته لجعل مثل هذه المواضيع القريبة من العلم شاعرية توقفت عند حدود معينة . هناك فرق بين غاليلي الذي يراقب قوانين الأجرام السماوية وبين الكاتب الذي يستخلصها . لكن برشت لا يؤمن بوجود مثل هذا الفارق . وكان يعتقد بأن العلم يمكن أن يتيح للانسان حياة مطمئنة فوق هذه الأرض . وهو تقدير أظهرت الأيام خطأه إذ أن العلم تحوّل اليوم الى غول مخيف يهدد الطبيعة والحياة البشرية على حد سواء . وربما لهذا السبب أفل نجم برشت هذه الأيام وتناساه الناس في هذا الوقت الذي تشتد فيه مناهضتهم لخطر الحرب النووية وتدمير المحيط الطبيعي .



سلفادور دالي : رأس رافائيل مشدوخ ، ١٩٥١ .

ولهذا لا بد من طرح السؤال التالي : «الى أي حد يمكن أن يكون الأدب عقلانياً اذا ما رفض التخلي عن الحداثة ؟» . غير أن برشت تحاشى بمكر طرح مثل هذا السؤال . أما سارتر في كتابه حول الأدب والصادر في سنة ١٩٤٧ فقد حاول التوفيق بين الالتزام والحرية وبين الضرورة الجمالية والاخلاقية وبين استقلالية الأدب ودوره في وضع معيّن . وقد قام سارتر بفصل الشعر عن النثر . فالشعر بالنسبة اليه ينتسب الى الفنون المطلقة مثله في ذلك مثل الرسم والموسيقى . أما النثر فهو الفعل المكتوب . ان الكاتب كائن يتحدث ، وهو من خلال ذلك يمكن أن يشتم أو يطالب أو يقنع أو يتوسل أو يقترح . وهذه النظرية التي طرحها سارتر تكاد تعكس تماما صورته ككاتب . فكأنه يتحدث عن نفسه من خلالها ويبرر مواقفه وأفكاره . وهو كواحد من العمالقة الكبار لا يرى ضرورة في أن يكون العقل في خدمة مذهب أو منهج أو نظام . أنه بالنسبة اليه طاقة لا تعرف التعب ودائماً وراء الأسئلة والأفكار الجديدة . وهكذا تمكن سارتر من أن يحرر نفسه من كل العوائق العقلانية التي كبلت المبدعين خلال مختلف العصور . وهو يكتب كان دائماً يحاول أن يهرب من الاجابات النهائية وأن يكون شبيهاً بنهر عظيم يتدفق باستمرار . كما أنه لم يرغب في امتلاك ذلك العقل الذي كان يصفه كانط بأنه وسيلة ناجعة لاستخلاص الخاص من العام . إن التنوير حسب أدورنو وهوكنهايمر شمولي . وهدفه الأسمى هو بلوغ المنهج الذي ينتج عنه كل شيء . غير أن سارتر رفض كل المناهج ونادى بضرورة أن يكون الأدب مفتوحاً أو لا يكون . وربما لهذا السبب ولأسباب أخرى بطبيعة الحال لم يتردد في أن ينفي نفسه أكثر من مرة وأن ينقد أفكاره بنفس الشدة التي نقد بها أفكار الآخرين . اضافة الى كل ذلك كان سارتر يرى أن الأدب اذا ما تحوّل الى بوق دعاية والى شكل من أشكال الترفيه السطحي والساذج فان المجتمع بأسره سيسقط في الحضيض ويغرق في الوحل .

بعد كل هذا ماذا يمكن القول عن أدب اليوم ؟

اننا نستطيع اذا ما تأمّلنا الانتاج الأدبي الذي يطالعنا هذه الأيام أن نتلمس رد فعل واع وغير واع لما يمكن أن نسميه بالبؤس التنويري يعكس أزمة حادّة هي ثمرة التقدم العلمي والتقنية . وقد بدأت هذه الأزمة في الستينات أي عندما بدأ يظهر أدب يمكن أن نسميه بالأدب الأخضر . وهو أدب مناهض لكل نقد عقلاني ويتمحور حول التجربة الذاتية للكاتب أو حول مفاهيم مثل «الاصالة» و «الوطن» و«المرأة» وهو خليط من العواطف الحميمية والانفعالات والدموع والهواجس (أعمال بيتر هاندكه Peter Handke وبوتو شتراوس Botho Strauss على سبيل المثال) .

هل معنى ذلك أنه لم يعد ضرورياً أن نطرح السؤال التالي : ما معنى أن يكون الأدب عقلانياً وما معنى أن يكون لا عقلانياً ؟ ! وهل معنى ذلك أن الأدب قادر من جديد أن يثبت وجوده في الواقع وأن ينتصر على أولئك الذين حاولوا تدميره باسم العلم والتكنولوجيا الحديثة وذهبوا الى حدّ إعلان موته .

ملاحظة : هذا النص تلخيص لمحاضرات ألقيت خلال هذا العام بمناسبة ندوة قدمت فيها مجموعة بحوث حول عدد من المشاكل المتعلقة بالأدب والفن .

ميخائيل شنايدر

هل تكون الرؤيا مصدراً للأمل ؟

لو عاش بلوخ الى حد سنة ١٩٨٥ ، لكان بلغ من العمر مائة عام . وقد احتفلت مدينة لودفيجسهافن Ludwigshafen التي شهدت مولد الفيلسوف الكبير بهذه المناسبة ، ونظمت معرضاً ضخماً تحت عنوان «**الرؤيا : مصدر للأمل**» .
وجميع مواضيع المعرض استلهمت أساساً من أفكار هذا الفيلسوف الذي يعتبر دون شك واحداً من أعظم فلاسفة عصرنا . وهي مستقاة أساساً من مؤلفاته الرئيسية الثلاثة : «روح الطوباوية» ، و «مبدأ الأمل» و «ميراث عصرنا» . وقد اهتم بلوخ اهتماماً بالغاً بفكرة الرؤيا . ومعلوم أن فكرة «نهاية العالم» وأفكاراً أخرى تتصل بالدمار الشامل وبمخاوف الناس من نهاية مفجعة للحياة سيطرت في المرحلة الأخيرة على الأدب والفن والفلسفة .
والمعرض المذكور أبرز فكرة الرؤيا منذ القرون الوسطى ، مروراً بعصر الاصلاح (رسوم ألبرخت دورر) وثم عصر النهضة والعصر الباروكي ، وأخيراً القرن التاسع عشر والقرن العشرين . ومعلوم أن فن الرؤيا لم يعد ابتداء من عصر النهضة فناً ثوراتياً . وكانت أغلب اللوحات تنتمي الى القرن العشرين . والسبب أن فكرة «الرؤيا» أصبحت أكثر انتشاراً وسيطرة على أذهان البشر بسبب الفواجع التي ألمت بها خلال الحربين العالميتين ، وأيضاً بسبب تفاقم أخطار اندلاع حرب نووية . وربما لهذا السبب أيضاً أصبح هذا الموضوع . موضوع الرؤيا – يحظى باهتمام كبير لا من جانب الفلاسفة والشعراء والفنانين ، بل وأيضاً باهتمام عامّة الناس .
وقد كان المعرض أثمن هدية قدمتها مدينة لودفيجسهافن لابنها العظيم الذي فهم عصرنا فهماً جيداً ، وتعمّق في دراسة فواجعه وآلامه .

وفي هذا الصدد نقدم نصّاً لميخائيل شنايدر يتحدث فيه عن فكرة الرؤيا في عصرنا وتأثيرها على الأدب والفن عموماً .

ثمة شبح يجول في أوربا ويسمّى شبح سفر الرؤيا . وهو يتربص بالبشرية ويغذّي خيالها بالصور الفاجعة عن قرب نهاية ودمار العالم .

وبعد أن كانت هذه التصورات الخيالية حول هذا الشبح تنساب في أثناء الليل في العهود القديمة ، أصبحت اليوم تتسرب الى نفوسنا في وضح النهار ، متخذة أشكالاً وصوراً جديدة : نبوءات دينية ، تكهنات وافتراضات علمية ، رؤى فنية ، أساطير مبتذلة أو مجرد خرافات .

لقد كثر في السنين الأخيرة استعمال كلمة «نهاية» . والكل يتحدث عن «نهاية التنوير» وعن «نهاية الأدب» وعن «نهاية الحداثة» وعن «نهاية النمو الاقتصادي» ، وأخيراً انتشرت الرؤيا الفاجعة عن «نهاية البشرية» .

ولقد كان رقم اورويل Orwell السحري ١٩٨٤ تمثيلاً لهذه الرؤيا المتشائمة . ولم يحدث – مثلما هو الحال الآن – أن انتعشت اليوطوبيا والرومانسية المتشائمة ، وفلسفة اليأس ، والتخيلات المفعمة بالأحاسيس الكئيبة عن قرب نهاية البشرية . وكل هذا خلق نوعاً من الشعور يشابه كسوف الشمس في نفوس الناس ووعيهم .

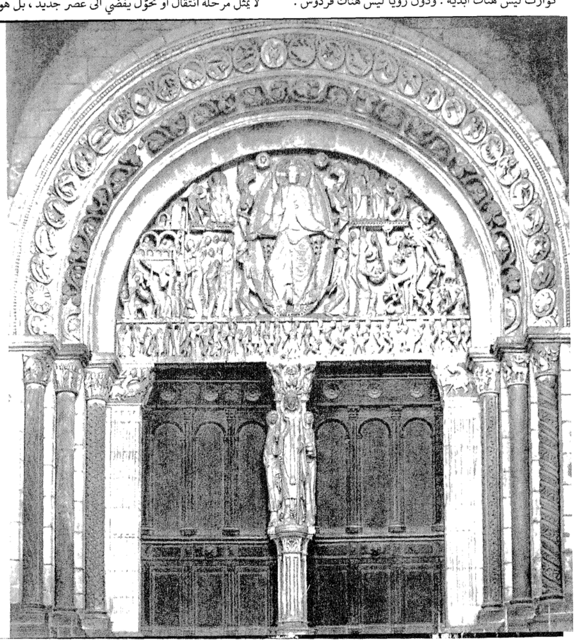
والآن تكتظ المكتبات الالمانية بمختلف الكتب حول النهاية المرتقبة للبشرية . كما أن أفلاماً مثل «الرؤيا الآن» و«الكارثة» و«المقهى النووي» و«العاب الحرب» و«اليوم التالي بعد نشوب الحرب النووية» نشهد إقبالاً جماهيرياً لا مثيل له .

ولا تنطلق التخيلات عن زوال العالم من التفكير في احتمال نشوب حرب نووية فحسب ، بل وأيضاً من التفكير في اشتداد الأزمات الاجتماعية والبيئية وفي الكوارث الحقيقية والخيالية ، وفي الأزمات السياسية والتهديدات العسكرية . وكذلك من التفكير في انقراض الغابات وانواع من الحيوانات والنباتات ، وفي الانفجار السكاني وفي كوارث المجاعات في العالم الثالث ، وفي البطالة المتزايدة ، وفي تفاقم الارهاب ، وفي اشتداد الرقابة الشاملة للدولة .

في ملاحظاته الهامشية حول زوال العالم كتب هانس ماجنوس إنتسنسبرجر Hans Magnus Enzensberger ساخراً من هذه الظاهرة : «إن تخيلاتنا حول سفر الرؤيا أو زوال العالم تصاحبنا باستمرار في حقائبنا الايديولوجية الصغيرة . انها شبيهة بمبهج للشبق . وهي موجودة في كل مكان . ولكنها ليست حقيقية . وكأنها حقيقة أخرى أو صورة نحاول رسمها أذهاننا . انها الانتاج المتواصل لخيالنا . انها الكارثة في

رؤوسنا . انها كل ذلك وأكثر من ذلك . انها واحدة من أقدم التخيلات التي لازمت الجنس البشري .
وهذه الظاهرة التي تأتي وتختفي من حين لآخر ، لها تاريخ متقلب ارتبط دائماً ومباشرة بالتغيرات المادية التي لازمت تاريخ البشرية . ذلك أن الأفكار حول نهاية العالم قد رافقت اليوطوبيا دائما وأبداً وكأنها ظلها أو وجهها الآخر . دون كوارث ليس هناك أبدية . ودون رؤيا ليس هناك فردوس .

وكل هذه التخيلات عن زوال العالم ما هي الا يوطوبيا سلبيــة .» .
وفي كتابه **الخوف من الفوضى** الذي اكتشفت أهميته أخيراً ، كتب يــواخيم شومــاخر Joachim Schumacher تلميــذ الفيلسوف إرنست بلوخ Ernst Bloch أن الانسان في مختلف العصور ، أراد دائماً أن يُقنع نفسه بأن العصر الذي يعيش فيه ، لا يمثل مرحلة انتقال أو تحوّل يفضي الى عصر جديد ، بل هو



يوم الحساب : البوابة الغربية في كاتدرائية أوتون ، ١١٣٠ .



مارك شاغال : نبوءة تدمير القدس .



مارك شاغال : نبوءة تدمير بابل .

نهاية المطاف ، بعده لن يبقى أثر للانسان أو العالم . وقد اعتقد الانسان أيضاً أن التناقضات والازمات الاجتماعية والفكرية في عصره ليست سوى عقاباً من الله . ونحن حين نتأمل في تاريخ العالم نكتشف أن ظاهرة الخوف من الزوال والفناء لازمت البشرية منذ ظهور أول مخطوط . وتكاد كل أساطير سفر التكوين بغض النظر عن منبعها الديني أو الثقافي تتضمن في أعماقها إنكار واضح لذاتها . وكل التخيلات الفنائية عبر التاريخ مهما اختلفت أشكالها والأقنعة التي تختفي وراءها كانت دائماً تمثل تعبيراً عن تغيّرات اجتماعية حاسمة ، راهنة أو مستقبلية . وقد خلقت هذه التغيّرات التاريخية شعوراً بالخوف من المجهول ، وساعدت على بروز التخيلات بقرب زوال العالم . وقبل أن يحتل الرومانيون الامبراطورية الاغريقية ، تصور الاغريق أن انهيار عقيدة **تعدّد الآلهة** في العصور القديمة ليس سوى النهاية الشاملة للعالم . وكان العصر الذي أعقب العصر الاغريقي ، مفعماً بالخوف من الموت وبشعور من الدمار والتشاؤم العميق .

في هذا الفراغ العقائدي والديني ، برزت المسحية كديانة انسانية ، جاءت لتواسي الانسان بتصوراتها عن الآخرة وعن الخلود ، وأعادت للوعي الانساني في مستهل القرون الوسطى ، السكينة والهدوء ، وكل ما كانت فقدته بسبب تلك الصراعات التي نشبت بين خلفاء الاسكندر الأكبر قبل ٣٠٠ عام من ميلاد المسيح . ولكن المسيحية – رغم ذلك – لم تشذ عن القاعدة واستشفت هي أيضاً النهاية المرتقبة للبشرية مكن خلال الحروب والحروب الأهلية ، والطاعون الأسود ، وكل تلك الكوارث التي اعتبرتها عقاباً من الله بسب شرور ارتكبت فوق الأرض .

ولقد سبقت حركة التنوير في أوربا والثورة العلمية التي رافقتها وتطورت بعدها ، أزمة عميقة في ايمان ووعي الناس . من ذلك ان الحروب الدينية وحرب الثلاثين سنة (١٦١٨ – ١٦٤٨) بفرسانها المجسدة للرؤيا ، والتي دمّرت





ادوارد مونك : الخوف .
الصرخة



فاسيلي كاندينسكي : البعث الكبير .

«الامبراطورية الرومانية المقدسة للام الالمانية» ، اعتبرت إنهياراً فاجعاً لا للنظام السائد فحسب ، بل وللعالم ككل . وقد أثار انـدلاع الثورة البورجوازيـة في انجلترا وفرنســا ، وبالاخص لدى الاشراف والقساوسة المخلوعين ، التخيلات الفنائية . وفي الحقيقة ، يمكن أن نقول بأن كل الطبقات التي حكمت ، لم تترك الركح إلا بعد أن قامت بتلك الحركة العاطفية ، والمثيرة للشفقة ، وكأنها تريد أن تقول أن سقوطها إشارة بنهاية الحضارة الاوربية ، بل وبزوال العالم نهائياً ! وقد كان كتاب أوزوالد شبينجلر **تدهور الحضارة الغربية** نوعاً من التخيل الجماعي للثأر ، إذ أنه يجسد هذه الفنائيـة . وباختصار يمكن أن نقول : ان كل حركة في اتجاه المستقبل ، تعتبر من طرف الطبقة الحاكمة ، دعوة الى الفوضى والى التدمير التام ! وعند انهيار الرايخ الثالث ، راجت التخيلات الفنائية . وخلال فترة إعادة بناء ألمانيا وحتى الخمسينات ، سيطر التشاؤم على الناس وداهمت الكوابيس أذهانهم . ويبدو ذلك واضحاً في المؤلفات الأدبية التي صدرت عقب الحرب العالمية الثانية .

اضافة الى ذلك ، تسببت الفاجعة التي المت بهيروشيماوناجازاكي من جراء القنبلة الذرية في إحداث هلع كبير من احتمال فناء البشريـة . وتثبت الحركـة المعارضـة للتسلح النووي في الخمسينات بأن الفزع الذي أصاب الانسان بسبب التسلح النووي كان شديداً ، وان الخوف من اندلاع حرب عالمية ثالثة أصبح ملازماً له في حياته اليومية . وكل تلك المخاوف السوداء التي تناساها النـاس أثنـاء فترة الرخـاء والمعجزة الاقتصادية العالمية ، تفاقمت من جديد خاصة بعد أن بلغ التسلح النووي ذروته في السبعينات .

وتوضح احدى الدراسات العلميـة التي نشرت مؤخراً أن المخاوف والتصورات الفنائية المنتشرة الآن انتشاراً مريعاً ، ليست سوى نتيجة مبتشرة لفقدان الناس الثقة في القيم السائدة : الدولة ، العدالة الاجتماعية ، التكنولوجيا الخ . وهو ما كان سمّاه نيتشه من قبل بانقلاب القيم في جميع مجالات الحياة . وبناء على ذلك ، فان كل التصورات الفنائية الرائجة اليوم ، يمكن وصفها بأنها أحلام بالخلاص انقلبت فجأة لتصبح يوطوبيا سالبة ، ذلك أن الحضارتين ، المسيحية والشيوعية لم تتمكنا من تحقيق ما وعدتا به الناس من محبة وخير ومساواة وعدالة .

وقد انجر عن هذا الفشل الذريع تفاقم الشعور باليأس لدى الانسان المعاصر واشتداد تلهفه للخلاص من الحضارة بصفة عامة ! وقد عمـد الكثير من المنبئين بزوال العالم إرجـاع التهديدات المختلفة التي تواجه الانسان ، لا الى حقائق واقعية وموضوعية ، مثل الاضطرابات السياسية ، والعسكريـة ، والبيئية ، بل الى الانتروبولوجي ، والميتابسيكولوجيا ، والى تجريدات فلسفية أخرى . وهم يريدون أن يثبتوا من خلال ذلك أن الانسان هو مصدر كل شيء ، وما يواجهه اليوم من رعب شيء متأصل في طبعه .
ومثل هذه الأفكار تروجها الآن جماعات تختفي وراء ما يسمى

بابلو بيكاسو : الغرنيكا ، ١٩٣٧ .



بالفلسفة الجديدة . ولقد استعمل جـورج لـوكاتش Georg Lukaćs مرة تعبيراً ظريفاً هو : «**فندق الهاوية الكبير**» . ويبدو أن هذا التعبير يجسد بحق وضعية هؤلاء «الفلاسفة» الجالسين في الصالونات الفخمة يلتذون با الحديث عن الشرور وعن الضغينة والحقد وإعداد القداسات الجنائزية الصارخة . وهدفهم من خلال ذلك قبر كل اليوطبيات الانسانية والاجتماعية ، وإلقاء الانسان في مهمه قفر .

ان التهديدات التي تجابه حضارة عالم اليوم ، تحتم علينا تغيير أساليبنا ومناهجنا الفكرية بصفة جذرية وكما لم نفعل ذلك من قبل ، حتى نتمكن من مواجهة التهديد النووي . هذا التهديد الذي لا يمكن مقارنة خطره بخطر الانقلابات الاجتماعية والسياسية السابقة ، لا بد أن يحفّز هممنا ، وأن يقوّي فينا الرغبة في المحافظة على الحياة البشرية . وهناك العديد من الظواهر تشير الى أن هناك تغيّراً في الوعي بدأ في العشر سنوات الأخيرة ، وهو شبيه بذلك الذي رافق عصر النهضة . وحده هذا الوعي الجديد يمكن أن يعلن عن ميلاد انسانية جديدة وفيه في ثناياه يكمن «**مبدأ الأمل**» !

(تلخيص لنص طويل بنفس العنوان) .





باول كلي : خـوف .



ماكس بيكمان : فارس الرؤيا .

سلامه موسى

تربيتي العلمية

لما تركت مصر الى فرنسا في سنة ١٩٠٧ كان «التطور» من مركباتي الذهنية البارزة ، بل المركب الأول . حتى إني حين هبطت باريس جمعت طائفة من الكتب التي تعالج هذا الموضوع ، ولكني لم أستطع فهمها وقتئذ ، لأني أسأت الاختيار فلم أقتن الكتب الإبتدائية أو بالأحرى لم أجدها . فلما قصدت إلى لندن وجدت العشرات من هذه الكتب الإبتدائية . وكانت جمعية «العقليين» تنشرها وتبيعها بأثمان التراب ، بسعر ٢٥ مليماً لكل كتاب . فأكببت عليها في دراسة مثابرة ، مع استخراج الخلاصات وكتابة التعليقات . وقرأت كتاب داروين «أصل الأنواع» . وليس في هذا الكتاب شيء يشق على الفهم ، ولكنه يحتاج الى التأمل الكثير . وداروين بعيد كل البعد عن التعبير المسرحي ، إذ هو متواضع معتدل يكتب في حذر كأنه يخشى أن يؤمن القارىء بكل ما يقول . وهو الضد لنيتشه في الأسلوب . فإن نيتشه ناوي سماوي ، أما داروين فأرضي طيني . وأسلوب نيتشه عاطفي ذاتي حتى حين يهتدي الى الحقائق الموضوعية . أما داروين فيكتب عن وجدان وتعقل ، حتى لتحس أنه ينفض عن نفسه عاطفته وذاتيته كما ينفض أحدنا الغبار عن شخصه .

وليس شك أن حبي لداروين ، وتحيزي لنظرية التطور ، منذ نشأتي الثقافية ، قد تركا أثرهما في أسلوبي الكتابي . فقد قيل إن الأسلوب يدل على الجانب الأخلاقي للمؤلف ، بل يكشف عنه . أي يدل على الاتجاه التفكيري وإيثار بعض القيم على بعض . وأنا أؤثر أسلوب داروين : أسلوب المنطق الصارم ، والحذر ، والاعتدال ، على أي أسلوب آخر يوصف بأنه «أدبي» . وكثيراً ما وصفني الكتاب في مصر بأني لست «أديباً» لأنهم لا يجدون عندي تلك الزخارف والتزاويق المألوفة في غيري من الكتاب . ومع ذلك فإني لا أنكر سحر الأسلوب العاطفي . ولكني إذا كنت ألتذ السحر أحيانا ، وأستمتع بما فيه من مهارة ، فإني أؤثر عليه أسلوب التعقل والوجدان . وأذكر أني حين قرأت «من الأعماق» تأليف أوسكار وايلد أعجبت بسحره . حتى إني عندما بلغت الصفحة الأخيرة عدت فوراً الى الصفحة الأولى أقرؤه ثانية كأني أستعيد لحناً جميلاً وأنغاماً رائعة . ولكنه لم يترك في رأسي مركبات ذهنية كتلك التي تركها «أصل الأنواع» لداروين . فقده غيرني داروين . أما أوسكار وايلد وجون روسكين وكارليل من الكتاب الذاتيين فقد نسيتهم ، لأنهم جميعاً بعيدون عن الحقائق الموضوعية . وحين أقرؤهم الآن أشعر أنهم يخطبون أو يصرخون أو يتفحصون . فأجد اللذة العابرة في أسلوبهم ، ولكني أحس أنهم ليسوا مفكرين أساسيين . والمفكر الأساسي عندي هو داروين الذي يتحدث في اعتدال وحذر . وأسلوبه هو الأسلوب الرصين. وأقرب الناس إليه في هذا الأسلوب هو برنارد شو . وقد سبق أن قلت إن أحسن ما نقيس به الكاتب أن نعرف مقدار ما تركه لنا من المركيات الذهنية ، لأنه على قدر هذه المركبات يكون تفكيره محورياً أو بذرياً ، أي أننا لا نأخذ منه المعرفة الجامدة فقط ، بل نأخذ المعرفة النامية التي تنمو وتتشعع في الخلايا الرمادية من الدماغ فتتركنا ونحن نفكر ونشتبك في اشتباكات جديدة لا تفتأ تنبهنا الى توسع وتعمق فإيناع . ومنذ ١٩٠٨ حين قرأت «أصل الأنواع» وأنا في هذا التوسع والتعمق . فقد درست البيولوجية والجيولوجية ، بل سيكلوجية فرويد ، بحافز من إيحاء داروين . كما أن داروين كان السبيل الى التعرف الى هربرت سبنسر . وكان داروين يصفه بأنه «فيلسوف التطور» .

والحق أن سبنسر هو المسئول عن تعميم هذه النظرية ونقلها الى المجتمع ، ولا عبرة بأنه ارتكب أخطاء كثيرة في التفاصيل ، فإن الأخطاء أحياناً قد تكون مثيرة مثل الاصابات . لأنها تفتح كوة على ناحية لم تكن مفتوحة من قبل . فاذا كان الناظر اليها

أخطأ الرؤية ، فإن فضله لا يزال عظيماً لأنه فتح الكوة . وهذا هو ما أراه في كثير من المفكرين مثل فرويد وسبنسر ، بل وداروين نفسه . فقد نبهنا فرويدفي خطئه عن «مركب أوديب» كما نبهنا سبنسر في خطئه عن سوء النظام الاشتراكي ، وكذاك نبهنا داروين في خطئه عن تنازع البقاء . وكل هذه الأخطاء كانت كوات جعلتنا نفكر ونبحث ، لأنها فتحت لنا آفاقاً جديدة انتقلنا بها من الميدان البيولوجي الى ميادية الاجتماع والدين والاقتصاد .

ومن الكتاب البذريين الأساسيين الذين تأثرت بهم ، وما زالت المركبات الذهنية التي خلفوها في خلاياي الرمادية قائمة بل نامية ، كارل ماركس . فقد وصلت اليه عن استغراض ضده من كتاب «الانفرادية» الذين يقولون بالمباراة الاقتصادية مثل هربرت سبنسر ، وخرجت منه على احترام له واحتقار لهربرت سبنسر وأمثاله . ولكن هذا الاحتقار ، في هذه النقطة المعينة ، لم ينقص إكباري للقوة التفكيرية عند سبنسر . والحق أنها قوة عظيمة جداً . فان نظرته شاملة ، وهو فيلسوف أكثر مما هو عالم . ولكنه فيلسوف بعيد عن الغيبيات . وقد احترف هذا الرجل التفكير احترافاً ، حتى ليسأم الانسان حين يقرؤه ويكاد يسائل : لماذا يلهث ويعرق ؟ . ألا يفكر في إجازة يستريح فيها ؟

والحق أنه لم يفكر في إجازة . وقد أصيب لهذا السبب بانهيار عقلي تألم منه نحو سنتين . وحتى بعد ذلك كان أحياناً يطلب من ضيوفه ألا يتكلموا ، بل أن يبقوا في ضيافته أو رفقته صامتين .

وفي هذه السنين كدنا ننسى هربرت سبنسر . ولكن كارل ماركس يزداد بمرور السنين قوة بل حياة . فإن نظرياته تحيا في كل مكان في العالم ، والأزمة العالمية الحاضرة هي أزمة الصراع المنتظر ، أو الوفاق المحتمل ، بين الماركسيين دعاة الإنتاج التعاوني وبين الديمقراطيين دعاة المباراة الاقتصادية . ولذلك لا يمكن أحداً أن يصف نفسه بأنه مثقف إذا كان يجهل الماركسية ، ولو كان يكرهها . لأن الأزمة العالمية هي في صميمها أزمة ماركسية .

وقيمة الماركسية في فهم السياسة العالمية ، والتطورات الاجتماعية والاخلاقية الحاضرة ، كبيرة جداً . ولكن لها قيمة أخرى في فهم التطورات التاريخية . والمتعمق في دراسة ماركس لا يتمالك من الشعور بأنه هو ، لا فرويد ، الأساس الصحيح للفهم السيكلوجي .فإن ماركس أثبت أن العواطف الاجتماعية ، أي التي نكتسبها من المجتمع ، أكبر قيمة وأبعث على التغيير والتطور وأثبت في كياننا مما نسميه العواطف الطبيعية . ولذلك لا يقتصر فضل ماركس على أنه جعل الاقتصاد علماً ، لأن الحقيقة أنه جعل كذلك الأخلاق والإجتماع والسيكلوجية علوماً . ولا يستطيع أحد أن يفهم هذه الثلاثة على حقيقتها ، الفهم الموضوعي ، إلا إذا كان ماركسياً .

داروين وماركس ، كلاهما قد غرس في رأسي مركبات ذهنية . وجعلني أنظر الى الدنيا والى الأحياء في استغراض علمي وتحليل اقتصادي وسيكلوجي .

وعندما أستبطن إحساسي الديني أجد أن بؤرة هذا الاحساس هو «التطور» . وهذا الاحساس الديني هو فهم وممارسة . فإني أفهم أننا وجميع الأحياء أسرة واحدة بما في ذلك النبات ، وأن الخلية الأولى التي نبض بها طين السواحل قبل نحو ٧٠٠ مليون سنة هي عنصرنا الأول . وأننا ما زلنا ننبض ونتغير في تجارب لا تنقطع ، وأن سنتنا هي لذلك سنة التغير ، وجريمتنا هي لذلك جريمة الجمود . ونحن حين نجمد إنما نكفر بسنة الكون مادة وحياة ، ولكن إلى جنب هذا الفهم الديني يجب أن «نمارس» ممارسة دينية احترام الحياة أياً كانت ، والتعرف على أشكالها ، وحمايتها من الأميين المستهترين بالطبيعة . هذه الطبيعة التي تكتسب في ذهني قداسة كلما فكرت في غابات افريقيا أو الهند وما تحوي من تحف الحياة . أو كلما فكرت في غياهب المحيط الهادي أو الأطلنطي أو المحيطين القطبيين وما بهما من أحياء يحاول التجاريون ، في غير شرف ، أن يبيدوها بالإلحاح عليها في الصيد .

وكذلك لا أقرأ الجريدة اليومية ، ولا أسمع عن خبر سياسي أو مشروع لقانون جديد ، إلا وأنظر إليه بالاستغراض الماركسي من حيث دلالته على النوازع المختفية التي دفعت اليه . في حين أن الذي يجهل الماركسية يتطوح ويتخبط في تقديرات «شخصية» للمثلين السياسيين أو الحربيين . مع أن هؤلاء ليسوا سوى أدوات تأخذ مكانها في دورة الآلة الكبرى ، في حركة

يجده الثاني الذي يحسب أن الحوادث التافهة والخطيرة ، والاتجاهات السياسية ، والتطور والثورة ، والحب والسلام ، كلها أشياء تجري جزافاً .

ويأتي فرويد ، بعد داروين وماركس ، في إيجاد المركبات الذهنية التي عملت في توسعي وتعمق . وعندي أن «مركب أوديب» الذي يعد محور السيكلوجية الفرويدية هو خطأ ، ولكنه خطأ منير . لأنه نبهنا ، كأنه دسيسة علمية تحركنا الى البحث والتنقيب في كهوف النفس المظلمة ، الى قيمة السنين الأولى من أيام الطفولة في تكوين الشخصية . وقد وصفت أقوال فرويد بحق بأنها «سيكلوجية الأعماق» . وهي كذلك ، وإن كنا نختلف كثيراً عما نجد في هذه الأعماق . ولولا فرويد لما كان هذا الجيش الذي يتألف من آلاف العلميين الذين يبحثون النفس البشرية في جميع الأقطار المتمدنة . وقد جمعت بين فرويد وماركس وخرجت منهما بأزكى الثمرات . بل فطنت الى ان ماركس هو السيكلوجي الأساسي لأنه يجعل وجدان الفرد ثمرة المجتمع .

وعبارة «التحليل النفسي» من العبارات التي تُعزى الى فرويد . وهي «اللافتة» لجميع أنواع العلاج السيكلوجي . وليس ثمة شك في قيمة التحليل . ولكني أحس أن «التأليف النفسي» أهم وأنفع من التحليل ، وأنه إلى الآن مهمل لأن السيكلوجيين مقيدون بفرويد .

وفي حياتنا العصرية لا يستطيع أحد أن يهمل التفكير العلمي لأن الحضارة الصناعية السائدة هي حضارة العلم . وقد دأبت في دراسة العلوم التي تدور حول التطور أو الاقتصاد أو السيكلوجية أكثر من ثلاثين أو أربعين سنة ، ولذلك أستطيع أن أتناول كتاباً عن الهرمونات ، أي مفرزات الغدد الصماء ، أو كتاباً عن الايكولوجية ، أي علاقة الحي بالبيئة ، أو كتاباً عن مشكلات الوراثة ، أو كتاباً عن جنون الشيزوفرينا ، فأقرؤها جميعاً في رغبة ولا أجد ذلك الصدود الذي يجده غيري ممن لم يعنوا بالعلوم .

وكل هذه العلوم هي دراستي المستقلة ، لأن ما حضرته من محاضرات في لندن لا يؤبه به . ومما آسف عليه أحياناً أني لم أجد المرشد ، حوالي ١٩٠٧ ، الذي كان يستطيع أن يعين لي منهجاً دراسياً في العلوم . ولكني ، بعد التفكير ، اسائل : هل



ميكيل انجلو : لورنزو ميديشي ، المفكر .
(كنيسة ضريح عائلة الميديشي في فلورنس) .

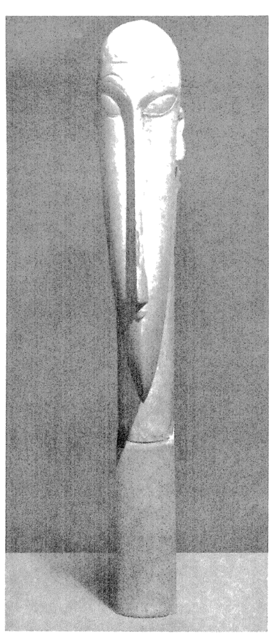
المجتمع الاقتصادي . ولذلك أيضاً أصبحت فكرة «البطل» في التاريخ من الفكرات التي كانت تتقهقر في وجداني كلما تقدمت في التحليل الاقتصادي . ولكن يجب أن أعترف أنها مع تقهقرها لم تنمح ، وأنه لا يزال للشخصية قيمتها في تفكيري .

وفرق عظيم ، بل عظيم جداً ، بين شخص قد قرأ ماركس ودرس التفسير الاقتصادي للتاريخ ، وبين آخر يجهله . لأن الأول ، الذي امتاز وجدانه بالحاسة التاريخية التي اكتسبها من ماركس يجد في أخبار الجريدة اليومية من المعنى والمغزى ما لا

كان يكون أفضل لي لو أني كنت قد انغمست في دراسة علمية تجريبية معينة ؟

إن المتخصصة في الجيولوجية أو البيولوجية أو الايكولوجية قلما يفكر في دراسة أفلاطون أو قراءة الجاحظ أو دراسة الحضارة الفرعونية . ولكني أنا بالاتجاه الموسوعي الذي اتجهته قد درست هذه العلوم ، في غير تخصص ، ولكن مع الإستطلاع الدائم لغيرها من الثقافة ، حتى أني أقدر ، مثلاً ، عدد المؤلفات التي قرأتها عن حضارة الفراعنة بما لا يقل عن أربعين أو خمسين كتاباً . ولم أترك كلمة مطبوعة للجاحظ لم أقرأها . وكذلك أستطيع أن أؤلف كتاباً عن غوتيه أو عن الإصلاح الزراعي في مصر أو المسألة الهندية بأيسر غناء . ولذلك يرى القارىء أني درست ، لا للثقافة ، بل للحياة . وقد حملتني دراستي العملية على أن ألتفت كثيراً الى المراحل البعيدة التي قطعتها العلوم المادية ، كالطب والهندسة والكيمياء والميكانيات والطبيعيات ، مع تأخر العلوم الاجتماعية ، التي حال دون التفكير الحر فيها وتغيير قواعدها تقاليد وشعائر وسنن وقوانين تعمل كلها لتجميد تطورنا الاجتماعي . فالاجتماع ، باعتباره علماً ، يعيش على مستوى التفكير في ١٦٠٠ أو ١٧٠٠ ميلادية . بل هو في أقطار آسيا وافريقيا يعيش على مستوى سنة ١٠٠٠ للميلاد . في حين أن الكيمياء أو الطب يسبقانه بنحو ٢٠٠ أو ٤٠٠ سنة . ولذلك نحن لا نعيش المعيشة العلمية في بيوتنا ، ولا يسود حكومتنا النظام العلمي . ولو أنه كانت هناك تقاليد وشعائر وسنن وقوانين للكيمياء مثلاً ، كما للمجتمع ، لبقي هذا العلم على مستواه حين كان كل هم الكيماوي أن يحيل الرصاص الى ذهب . كما أننا لو استطعنا التخلص من تقاليدنا ، ومن الاستغراضات التي تخدم بعض الهيئات والطبقات ، لكان في مقدورنا أن نرتفع بالاجتماع الى مستوى العلوم التجريبية المادية .

ولهذا أيضاً نجد أن الطالب الذي يدرس الطب نقول له في صراحة إن الذباب ينقل عدوى الرمد او الدوسنطاريا ، أو أن لحم البقر الذي أصيب بالدرن تنتقل عدواه الى آكله من البشر ، ولكننا لا نقول لهؤلاء التلاميذ أو الطلبة إن الأجور المنخفضة التي يحصل عليها العمال في مصر تفشي بينهم الجرب والعمى والموت . لأننا نخشى هنا الاستغراضات الامتيازية والاحتكارية والاقتصادية . ونخشى أن نصرح للفلاحين بأن



مودغلياني : رأس ١٩١١/١٩١٢ ، لندن .

كثيراً من الغيبيـــات التي يؤمنــون بها خرافيـــة . ذات يوم في ١٩١٨ كنت قاعداً في الريف الى قناة صغيرة في ظل شجرة وإلى جنبي فلاح قد بلغ الثانين ، وكنت أتأمل يرقات الضفادع وهي تسبح . فسألت الشيخ عنها فاتضح لي أنه لا يعرف أنها ضفادع صغيرة . ثم تشعب الحديث الى النبات فقال : «إن لكل نبتة من هذه الأعشاب التي تنمو على شطوط القنوات ملكاً يحرسها» . ولما نهضت أخذت أفكر في هذه الرواسب الثقافية التي انحـدرت الينـا عن الفراعنـة والكلدانيين والبابليين ، وجعلتنا نعيش في غيبيات تحملنا على النظر المخطىء لحقائق هذا العالم وتباعد بيننا وبين النظر العلمي الموضوعي . وقلت في نفسي : هذا الرجل غيبي ، يؤمن بأن العالم حافل بالأرواح التي تحرس النـاس والحيوان والنبات . إذن هو من خصوم داروين .

ولكن هذا الفلاح المسن يمثل في سذاجته المركزة جهل الرجل العادي والمرأة العادية . وكلاهما يعيش بذهنه على رواسب قديمة من العقائد . وحتى إن فكرة «القرينة» عند الفراعنة ، لا تزال حية في أيامنا . أجل ! . لقد ذكرت الآن . فقد كنت طفلاً لم أتجاوز السابعة أو السادسة . وكنت قد غضبت وصرخت ورفست ، وأنا في العشاء . فقالت لي أمي تخيفني : «دلوقت أختك تزعل منك وتضربك» .

وكانت تعني بأختي هذه «قرينة» الفراعنة . وقصدت الى الفراش ونمت بلا عشاء . وإذا بي أحلم أن فتاة قد حضرت وهي تحمل سوطاً ، ترفعه في الهواء كي تتحفز لضربي ، فصرخت في النّوم . وأقبلت إلي أمي في فـزع فـأيقظتني ، وحضنتني ، وجاءتني بكوب من الماء شربت منه جرعة . ثم أخبرتها عن الحلم ، فأخذت تقبلني وهي تبكي : «حقك علي يا ابني . أنا كنت بضحك . مفيش أخت . مفيش أخت» .

ولكن مجتمعنا لا يزال في أسر هذه القرينة أو ما يشابهها من العقائد التي تتخذ أحياناً أسلوب البحث العلمي . كما نرى مثلاً في أولئك الذين يزعمون أنهم يستجلبون الأرواح فتنقر على المائدة وتتحدث عن العالم الثاني . وهذه العقائد تعيش كأنها كابوس للمجتمع ، تعمل على تجميده وتخويفه حتى لا يتطور . ودعـاة الروح هؤلاء لا يختلفـون عـن تلك الأم الساذجة التي تقول عند يعثر طفلها : «وقعت على أختك أحسن منك» تمدح الأخت وتسترضيها حتى لا تصيب طفلها بأذى .

وهذه القرينة ، أو هذه الأخت التي أفزعتني في نومي ، وهذه الملائكة التي تحرس النباتات عند ذلك الفلاح المسن ، هي ضباب العقل الذي كان يجب أن يقشعه العلم . وقد انقشع أو كاد في أمريكا وأوربا . ولكنه لا يزال يخيم علينا ، لأن الثقافة العلمية لا تزال بعيدة عنا لم تتنفس هواءها الصافي .

وهذه الثقافة العلمية هي ما أفتأ أرجو أن أجعلها أسلوبي في الحياة الشخصية والإجتماعية . ولكني لم أخطىء قط ذلك الخطأ المألوف بأن أجعل العلم غاية ، إذ هو وسيلة فقط . أما الغاية فيعينها الأدب والفن والفلسفة ، أي كيف نعيش في مجتمعنا أصلح العيش وأروحه وأقصده وأشرفه .

وقد وضعت كتابي «نظرية التطور وأصل الانسان» ولي مأرب هو مكافحة الغيبيات الشائعة ، ونشرته كله مقالات في «البلاغ» قبل طبعه كتاباً ، كي أصل الى أكبر عـدد من القراء . ومن الذكريات السعيدة أني وقفت ذات يوم الى دكان صغير لا تزيد مساحته على ثلاثة أمتار مربعة أشتري لإبني بعض الحلوى ، فعرفني البائع وأخبرني أنه قرأ كتابي هذا وفهمه .

ولو أني وجدت التشجيع لأرصدتحياتي لإخراج كتب شعبية مثل «نظرية التطور» و «أسرار النفس» ، ونحوها وكثيراً ما كنت أتحسر حين كنت أرى مؤلفات العقليين في لندن . فإن كتاب «أصل الأنواع» الذي زلزل به داروين الثقافة الأوربية كان يباع بأقل من خمسة وعشرين مليماً .

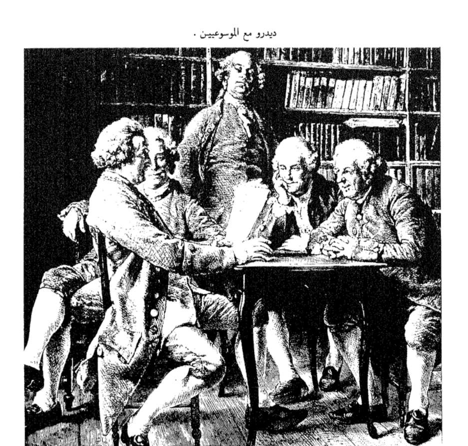
وحوالي ١٩٣٠ وجدت أنا والأستاذ صروف الفرصة سانحة لإيجاد حركة علمية شعبية في مصر . فعقدنا العزم على تأليف «المجمع المصري للثقافة العلمية» . وكانت الغاية منه أن يضم جميع المهتمين بالثقافة العلمية ونشرها بين الجمهور . ونجحنا في المشروع نجاحاً لم نكن ننتظره ، مما دل على أن المجمع أدى حاجة عضوية فسيولوجيـة في مجتمعنـا . عقدنـا الاجتماع السنوي الأول له وألقيت فيه محاضرة سيكلوجية عن طبيعة التفكير في ضوء الأحلام في قاعة الجمعية الجغرافية . ولكني في ذلك الوقت كنت أمارس نشاطاً سياسياً مركزاً في مكافحة اسماعيل صدقي (باشا) حين ألغى الدستور واستبدل به غيره ،

واتفق مع المستعمرين والمستبدين على إعادة الحكم التركي الشركسي الذي حاول عرابي أن يحطمه . وأدى نشاطي هذا في السياسة الى طردي من المجمع .

وكان من حظنا السيء أننا اخترنا معظم الأعضاء من الموظفين . ولذلك حين اختير حسين سري (باشا) رئيساً لاجتماعه الثاني أرسل الي خطاباً يفصلني من المجمع «مع الشكر» . وكان وقتئذ وكيلاً لاحدى الوزارات ، فوافق جميع الأعضاء «الموظفين» ولم يشذ غير واحد ، غير موظف ، هو الأستاذ اسماعيل مظهر . وجاء في عقب طردي الصديق زكي أبو شادي يعتذر اليّ بأنه لم يجرؤ على مخالفة «وكيل الوزارة» ولذلك أعطى صوته ضدي ووافق على طردي ، على أنه يعرف أنه ليس من حق المجمع أن يفصلني لنشاطي السياسي .

واتجه المجمع بعد ذلك وجهة اختصاصية غير شعبية ، ولذلك لم ينتفع به الجمهور كثيراً . وعندما أقارن بين الثقافة العلمية والثقافة الأدبية أجد أن القيمة العظمى للأولى أنها تحريرية . لأن التفكير العلمي يسير على نهج ارتقائي : هذا سيء فيجب أن نبحث عن الحسن ، وهذا أحسن ولكن يجب أن ننشد أحسن منه بالإكتشاف والإختراع . والتفكير الارتقائي هو بطبيعته تفكير علمي . وهو لم ينشأ في أوربا إلا بعد أن اتجه الأوربيون وجهة علمية في القرن السابع عشر . أما قبل ذلك فلم يكن هناك من يقول بأن الشعوب يجب أن ترتقي وتتغير . وقد يرد هنا علي بأنه كان هناك طوبويون يتخيلون حالاً سعيدة للبشر غير حالهم الحاضرة ، ولكن الفكرة الارتقائية لم تنبت قط في هذه التربة الطوبوية ، وإنما نبتت من البذور العلمية .

ديدرو مع الموسوعيين .



هشام جعيط

الانتاج الفكري العربي منذ عشرين سنة

هشام جعيط من المفكرين العرب في المغرب العربي . ولد في تونس العاصمة في ديسمبر/كانون الأول ١٩٣٥ . درس في جامعة الزيتونة وفي المدرسة الصادقية ، بعد ذلك انتقل الى باريس حيث درس في دار المعلمين العليا وفي جامعة السربون وبعد تخرجه درّس في جامعة باريس وفي جامعة تونس . اهتم في كتبه وفي الدراسات التي نشرها باشكالية العلاقة بين الغرب والشرق وكيف يرى الأوربيون الاسلام . من أهم كتبه المصير العربي ، دار الساي ، باريس ١٩٧٠ ودار الطليعة - بيروت - ١٩٨٣ .

لقد سبق أن وقع مسح للانتاج العربي وتقييم له من طرف هيئة الدراسات العربية في الجامعة الأمريكية ببيروت ، لكن هذا المسح يقف في أوائل الستينات ، ذلك أن مجلد «الفكر العربي في مائة سنة» قد برز في منتصف الستينات . ولهذا سنحاول التعرف عمّا جدّ من جديد في نتاجات الفكر العربي منذ تلك الفكرة . وسنبدأ أولاً بملاحظات عامة ، ثم نستعرض قطاعات الانتاج من تاريخ واقتصاد . . الخ ، وأخيراً نقيم هذا الانتاج ونعرض حلولاً وقتية .

١ - ملاحظات عامة

إن الجو العام الذي أثر في هذه الفترة على الانتاج الفكري العربي بدءاً من الستينات هو جوّ سيطرت عليه عدة ظواهر متزامنة أو متتالية : استقلال بلدان المغرب العربي وبلاد عربية أخرى ، حرب حزيران والنكسة التي صاحبتها ، وفيما بين ١٩٦٣ و١٩٧٣ تقريباً ، النمو الاقتصادي الضخم للعالم الغربي وسيطرة الاقتصاد العالمي على الوطن العربي ، حرب ١٩٧٣ وتغير الأجواء الاقتصادية لفائدة العرب ، وتبقى المشكلة الفلسطينية مطروحة على الضمير العربي طوال هذه المدة . ونلاحظ أيضاً أنه لم يقع أي تقدم محسوس في بناء الوحدة العربية ، وأن النظم القائمة في الأقطار العربية دلّت على تماسكها وديمومتها .

على الصعيد الفكري ، وداخل الساحة العربية ، ما يجلب اهتمامنا هو بروز عديد من الجامعات الفتية في البلاد العربية ، في تونس والجزائر والمغـــرب وليبيـــا والسعودية وبلدان الخليج . . الخ . وبصفة أعم إسهام المغرب العربي في الانتاج الفكري أكثر من ذي قبل وبأكثر منهجية .

وما يلحظه المرء طوال هذه الفترة هو : (١) من جهة تضخم الانتاج كمياً ، وولوج أبواب كانت مغلقة في السابق ، نشاط حركة الترجمة ، نشاط حركة النشر وتمركزها ببيروت ، بروز معاهد فكرية - ثقافية تلعب دور همزة الوصل بين المثقفين العرب وتحاول استعمال جزء ضئيل من الربح البتـــرولي . (٢) ومن جهة ثانية : سيطرة العامل السياسي الآني على الأفق العربي بدرجة لم يكن لها مثيل في السابق - نمو وتطوّر وهيمنة وسائل الاعلام - انخفاض قدسية الفكر والبحث العميق وتدهور المطمح العلمي ، بحيث صار الكتاب في بعض الأحيان نتاجاً مبتذلاً عادياً ، وهذا من ما يفسر تكاثر عدد الكتب وقلة ما يرجى البقاء منها أو يترجم ن مجهود طويل النفس .

دائماً على الصعيد الفكري ، نلحظ انفتاحاً كبيراً في الوسط الثقافي على التيارات الفكريـــة الخارجيـــة وذلك تبعـــاً لظاهرتين : - تكاثر الخريجين من الجامعـات الأجنبيـة : أمريكية - سوفياتية . . الخ . وتكثيف العلوم الانسانية على النمط الحديث داخل البلاد العربية وفي الجامعات العربية بالذات .

- تضخم حركة الترجمة ، والصفـة العشوائيـة التجاريـة الرخيصة التي كثيرا ما تتسم بها هذه الترجمة .

وهذه التيارات لا يمكن حصرها ، على أن التيارات التي أثرت في العشرين سنة الأخيرة هي : الماركسية ، العلوم السياسية وفقاً للنمط الامريكي ، البنيوية والسيائية وهذا تأثير فرنسي باريسي .

نمط رجل الفكر العربي منذ عشرين سنة :

بينا كنّا نجد الى حدود الخمسينات رجال ثقافة وفكر من نمط الشخصية الكبيرة ذات التأثير الواسع على الجماهير والنخب

(طه حسين ، العقاد . .) ، فان ما نجده الآن هو وسط فكري فقط تلتقي فيه عدة روافد ويلعب دوراً على الساحة العربية ، لكن هذا الدور مهمّش من طرف الساسة والجماهير . هذا الوسط الفكري يتركب من أربعين أو خمسين شخصاً لهم اهتمامات تتجاوز الحدود النظرية ، وتتجاوز العمل الأكاديمي البحت ، ويحاولون – انطلاقاً من اختصاص معين أو تجربة معينة – التفكير في مجمل المشاكل العربية . أما الأكاديمي العادي أي الأستاذ الجامعي الذي لا ينصرف إلا لاختصاصه ، فالمفروض أنه شخص موجود بكثرة ، لكن يبدو أنه لا يثابر على البحث المتخصص ، ولذا فهو لا يظهر بمظهر العالم المختص لكن بمظهر المدرّس الصغير . وهنا نصل الى نقطة استفهام وإبهام : فالوعي العربي لا يحسن التمييز الصارم المضبوط بين العالم المختص في أحد ميادين العلوم الانسانية والاجتماعية ، وبين المفكر الحقيقي صاحب النظرة الشمولية المتجاوز للاختصاصات ، والذي يأتي برؤية وبمفاهيم مع عمق في النظر واستقلالية في منابع التفكير . ليس كلّ من يفكّر مفكّراً ، وليس كلّ مختص عالماً ، وحقيقة الأمر تتلخص إذن في هذه النقاط :

– إن وجد وسط فكري نشط ، فلا يعني أن نحصي في الوطن العربي أربعين أو خمسين مفكراً ذوي مستوى مرتفع .
إن وجدت عديد من الجامعات ، فان عدد الباحثين المختصين والمثابرين طول حياتهم على تعميق معرفتهم العلمية قليل .

– يجب إذن أن نتحاشى الخلط بين المفكر المبدع والباحث المختص من جهة ، وبين هذين الصنفين وأصناف أخرى من أمثال الخبير والصحافي والسياسي المهني ورجل الثقافة من جهة أخرى . إن هذا الإبهام ينعكس على تقسيم مادة البحث المطلوب منا . فهناك ما يدخل تحت تسمية «الفكر» أو «الايديولوجيا» ، وهناك ما يدخل فقط تحت تسمية علوم اجتماعية وإنسانية» ، ولم يقع التمييز بعد بصفة واضحة .

٢ – الانتاج «الفكري»

(أ) مجال التفكير القومي

في هذا المجال ، يبرز بصفة أوضح ، ما هو مجال التفكير وما هو مجال التحليل . وليس ما كتبه ميشيل عفلق وإلياس فرح والرزاز وغيرهم في إعادة صيغة الفكرة القومية مماثلاً لما كتبه السيد ياسين (**تحليل مضمون الفكر القومي العربي** ، بيروت ١٩٨٠) ومادلين نصر وسعد الدين ابراهيم وهي دراسات استطلاعية وسوسيولوجية . الصنف الأول يدخل في مضمون التفكير القومي وهو تيار فكري – ايديولوجي ، والآخر يدخل في بوتقة العلوم الاجتماعية ذات الطابع الأكاديمي .
والذي نلحظه في هذا الطور الأخير من تاريخ الفكر القومي هو أنه لم تبرز شخصيات تنظيرية من طراز الكواكبي ثم الحصري أو عفلق . ولعلّ ذلك قد يوعز الى كون القوميين استولوا على الحكم في كل من سوريا والعراق ، وان التفكير عاد هنا كشبه الأمر الرسمي وحتى الدعائي . ومن الناحية الكمية ، تكمن المفارقة في التناقض بين الانبثاث الكبير للعواطف القومية في الجماهير العربية ولو بصفة غامضة ، وبين قلة التراكيب الفكرية والنتاج القومي البحت . فبينما تتعدد أسماء كل من خاض في الايديولوجيات الرخيصة للثورة والقومية والنضال الفلسطيني وما ينسب الى التفكير السياسي – الاقتصادي بخصوص الامبريالية وغير ذلك من الأغراض . وقد تعدّ هذه الأسماء بالمئات وحتى الألوف ، فان الأسماء الجديّة التي حاولت تعميق التراث الفكري القومي تعدّ على الأصابع . ولنذكر منها : الياس فرح ، وسعدون حمادي وشبلي العيسمي ومحمد عمارة ، ونديم البيطار ، والرزاز . ولنذكر أيضاً الجزئين العاشر والحادي عشر من **نضال البعث** . وأغلب هؤلاء المفكرين من رجال السياسة والعمل الحزبي .

نجد في هذه الكتابات تراجعاً في البناء النظري لقضية القومية العربية إذ لم تعد هذه القضية دعوة كما كانت سابقاً ، وتركز الاهتمام على العمل السياسي ، لكننا نجد أيضاً إقحام العامل الاسلامي (محمد عمارة) والعامل الحضاري (ا . فرح) في التفكير القومي .

وعلى الرغم من هذا ، يبقى هذا التفكير ضحلاً وناقضاً وعقائدياً وبعيداً عن مشاكل الحداثة والتنمية . هو ما زال أسير الشعارات الفضفاضة من مثل ثورة وجماهير ، وكثيراً ما يتكلم لغة الحرب ، لا لغة المنطق (أنظر نقد العروي لكتاب البيطار عن الايديولوجيا في كتابه الأخير «الأدلوجة») . وهو تفكير أحادي له منطلق معين وبعيد أكثر فأكثر عن مفاهيم الفرد والتاريخ والفن والمجتمع (هناك محاولات عند الرزاز و ا . فرح) . ومما يدلّ على أن فكرة القومية كما تمارّس الآن لا تخلق تنظيراً عميقاً إنسانياً مقبولاً من الضمير العالمي أو من النخبة العربية ، أن «مركز دراسات الوحدة العربية» ينشر دراسات ميدانية ودراسات اقتصادية ، ولا يكاد ينشر شيئاً في المجال النظري .



باول كلي : رأسان ، ١٩٣٣ .

ب) مجال التفكير الفلسفي

١) لا بدّ أن نعترف بأن العالم العربي ، بعد أكثر من قرن من ظهور حركة النهضة ، لم يبرز ولا حتى فيلسوفاً واحداً من طراز متوسط سواء ممن كتب بالعربية أو بلغة أجنبية . ولذا لا بدّ من الاعتراف بأن التقليد الفلسفي العربي الاسلامي مات خلال عصور الانحطاط ولم يخلف شيئاً . وأعجب من هذا أنه لم يتتلمذ أحد من الأجيال السابقة (جيل العشرينات والثلاثينات) على أحد كبار فلاسفة الغرب وهم على قيد الحياة وقائمين بالتدريس ، من أمثال Bergson ، Husserl و Heidegger.

المسلم – غير العربي – الوحيد الذي نهل الفلسفة الأوربية من أصولها واستعمل مناهجها لإعادة التفكير في الجهاز ، الاسلامي ، هو محمد إقبال . ومع هذا لم يكن إقبال بالفيلسوف الكلاسيكي أي صاحب النسق الفلسفي ولم يدّع هذا قط ، لكن كانت له مقدرة على أن يصوغ الأفكار في سياق فلسفي أصيل .

٢) بقي على العرب أن يبحثوا في تاريخ فلسفتهم الخاصة ، وهذا لم يقع بصفة جديّة قبل الستينات .

وبعد الستينات ، نلاحظ بروز عدد من الكتب ذات القيمة حول التراث الفلسفي منها :

– كتاب محسن مهدي حول فلسفة ابن خلدون السياسية .

– كتاب ناصيف نصار حول فلسفة ابن خلدون واسمه «الفكر الواقعي عند ابن خلدون» .

– كتاب محمد اركون حول فلسفة ابن مسكويه .

وتنقصنا الآن دراسات جديّة للتراث الميتافيزيقي العربي الاسلامي (ابن سينا ، ابن رشد) . وحول نشأة وتطور الفلسفة

عند العرب . وهنا لا بدّ من ذكر كتاب طيب التيزيني «مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط» ، (دمشق ١٩٧١) هذا الكتاب ينمّ عن مقدرة صاحبه الفلسفية الجيدة ، لكنه يبرز أيضاً ما يمكن أن نسميه باجهاض مشروع لتاريخ الفلسفة . ذلك أن صاحبه يتيه في فلك الماركسية المبتذلة التي يريد أن يفسر على ضوئها كل شيء ، ويفسر كذلك هويته أكثر من هذا في مقدمته التاريخية العامة والاسلامية التي شوّهت الكتاب تماما .

وهذا القول ينطبق أيضاً – ولو بدرجة أقل بكثير – على تطور محمد أركون وناصيف نصار . كلاهما أقحم نفسه في فلسفة الدين وفي الفكر العربي العام لترويج نظرة ايديولوجية .

أما كتابات الجابري (مثلاً نحن والتراث) فمستواها جيد ولكن تغلب عليها الايديولوجيا الباريسية أي فكرة القطيعة الابستمولوجية .

كل هؤلاء المفكرين انحازوا من تاريخ الفلسفة الى فلسفة الثقافة ، أي أنهم دخلوا في صراعات الضمير العربي حول تأويل التراث والدين وإشكالية الشرق والغرب ، وكل هذا يؤسس لبّ التفكير الفلسفي العربي .

٣) أقول إذن بوجود **فكر فلسفي – ايديولوجي** عربي له خصوصيته في كونه يتمحور حول مشاكل ذاتية تتردد بكثرة . هذا النسيج من الاشكاليات السياسية – الحضارية – الثقافية يمثل إسهاماً مهماً ، لكن بقي عليه أن يتجاوز الأفق العربي – الاسلامي وأن يدخل نطاق التنظير العام . هذه الاشكاليات نجدها في صلب المجتمع . في خطاب السياسي كما في خطاب الصحفي ، لكنها لا تأخذ بعدها الفلسفي النظري إلا عند القليل . ولنذكر من جملة هذه المجهودات كتب : عبد الله العروي وهشام جعيط والجابري واركون ونصار والتيزيني في كتاباتهم العامة .

(ج) مجال التفكير الاقتصادي

يمكن أن نعتبر سعيد حمادة رائد الدراسات الاقتصادية في العالم العربي بفضل كتابه «النظام الاقتصادي في سوريا ولبنان» ١٩٣٦ ، وبفضل تدريسه أيضاً بالجامعة الأمريكية في بيروت ثم أتت فترة بعد الحرب العالمية الثانية ، سجّل فيها علم الاقتصاد تقدماً لا بأس به في كل من لبنان وسوريا والعراق . في هذه الفترة ، برزت دراسات كما أنشئت مؤسسات . من الأسماء نذكر جبرائيل منسي وأمين الحافظ ، د. زلزلة و د. خير الدين حسيب و د . أحمد سوسة . ومن المؤسسات : مجلة «الاقتصاد اللبناني والعربي» وكلية الاقتصاد ببغداد . ويبقى الى حدود الستينات علم الاقتصاد العربي وصفياً وفي أفضل الأحيان تحليلياً تطبيقياً ، ويقترب من الجغرافيا الاقتصادية أكثر مما يحاكي علم الاقتصاد البحت . لكن مع هذا ، نجد الدراسات الجيدة عن الدخل والزراعة والصناعة . والفكرة التي طغت على البحوث الاقتصادية في العشرين سنة الأخيرة هي بالطبع فكرة النمو أو الإنماء ، وتحت لوائها قامت الدراسات الشخصية أو الجماعية (في الندوات) ، بحيث تحول علم الاقتصاد العربي الى بحث لا نهائي حول امكانيات التنمية . وبما أن عملية التنمية تستقطب العديد من القطاعات ، فان البحوث انصبت أيضاً على ما هو ديموغرافي ، واجتماعي ، وسياسي ، اعتماداً على فكرة شمولية الإنماء . ولا بدّ أن نلحظ في هذا الصدد أن ارتفاع سعر النفط في سنة ١٩٧٣ أثر على أفق هذه الدراسات وفتح امكانيات للرؤية المستقبلية .

هذا وما زالت الدراسات الاقتصادية لم ترق الى مستوى التنظير العام وتتمحور حول فكرة التخطيط ، وهي تتأرجح بين الأفق القطري والأفق العربي العام . وقليلاً ما نجد كتباً هامة كتبها أفراد ، باستثناء البعض ، وتبقى أغلب المصادر منبثقة عن الجامعة العربية أو عن المؤسسات القطرية (مثلا : المعهد العربي للتخطيط) ، أو عن مركز دراسات الوحدة العربية ، بحيث لا يظهر من أول وهلة أن انتاج الجامعات له وزن كبير في الميدان خلافاً للفترة السابقة . أما المقالات فهي عامة وتتناول مشاكل مستقبلية وهي في عددها أقل بكثير من المقالات المحررة من طرف الأجانب (أنظر على سبيل المثال البيبيلوغرافيا الذي يقدمها د . عبد الحميد ابراهيمي في كتابه «أبعاد الاندماج الاقتصادي العربي واحتمالات المستقبل») . ولنذكر من جملة الأسماء اللامعة : د . يوسف صائغ ، د . جورج قرم ، د . البشير داعوق ، د . خير الدين حسيب والآن د . عادل حسين .

(د) التفكير السياسي والاجتماعي

لا بد من التأكيد أن المجتمع العربي الذي يبدو متسيساً للغاية لم يفرز فكراً سياسياً علمياً وتحليلياً يندرج فيما يسمى بالعلوم السياسية . ولذلك أسباب : منها الرقابة والرقابة الذاتية ، ومنها أن الثقافة السياسية التي استحوذت على العقول أخذت شكلاً شفوياً والكتابي الرصين أهمل لفائدة البحاثين الأجانب ، ومنها تفاقم التفكير الايديولوجي المنحدر من الماركسية .



باول كلي : الناقد .

وهكذا عندما نتوقف عند قائمة مطبوعات دار نشر كبيرة في بيروت ، نجد تحت عنوان «السياسة والمجتمع» بليخانوف وفانون وغرامشي ، ونكاد لا نجد عربياً واحداً جاداً . غير أن كل هذا لا يدخل في صنف العلوم السياسية التي تتوخى البحث في السلطة ، ومدى مشروعيتها ، وإشكال ممارستها ، وأسسها الاجتماعية والايديولوجية ، بحيث لا نجد تقريباً دراسات قامت بتحليل الأوضاع بمصر والعراق وسوريا وتونس والمغرب الخ . . دون الانزلاق في هاوية الايديولوجيا الرخيصة . وعلى العكس فالأعمال الأمريكية حول وضع الشرق الأوسط تكاثرت في الستينات ، وهي أعمال منحازة في الغالب ولها نظرة خاصة الى المشاكل العربية الكبرى .

أحسن ما كتب في هذا الميدان ، كتبه عرب باللغات الأجنبية وعادة في المناخ الجامعي الأمريكي أو الفرنسي : ولنذكر من بينهم كتاب حنا بطاطو عن العراق والمعارضة الشيوعية Princeton Press ، وكتاب الهرماسي حول المغرب العربي California Press ، وكتاب محمود حسين الماركسية المنبع ، وكتب أنور عبد الملك ، وهناك فصول تخص تحليل الوضع السياسي بالمغرب في كتب العروي وجعيط[1] .

ومع هذا ، فالكل يعلم في المنهجية الأمريكية من سطحية ونقائص ، لكن الماركسية الميكانيكية الدغمائية لا تفسر شيئاً . في الجملة ، هذه البحوث تتسم بالطابع العلمي ولكن المنجية العربية لم تجد بعد في هذا المجال طريقها الخاصة للبحث والتنظير .

أما الدراسات السوسيولوجية ، فنقصها فادح ولا نكاد نجد الا القليل من البحوث العينية حول وسط اجتماعي معين . الخطر الكبير في هذه الميادين هو استعمال السياسة كسلاح أو كدعوة إصلاحية أو الافراط في التنظير المنهجي . وما ينقصنا إذن هو برنامج كامل للبحوث السياسية والاجتماعية يضيء لنا واقعنا كما هو . وما عدا هذا ، فكل ما سمّي بفكر سياسي عربي هو دعوة وايديولوجيا ورؤى شخصية في الغالب مقولبة في قالب واحد .

(هـ) الفكر التاريخي والبحوث التاريخية

المنطقي أن يكون هذا الميدان أخصب ميادين الانتاج الفكري لما اتسمت به الحضارة العربية من عمق تاريخي وأيضاً من تقاليد تاريخية عريقة . لقد قامت النهضة العربية منذ أكثر من قرن على نبش التراث ، ونشر أمهات الكتب ، والاهتمام بماضي العرب من عدة نواح ، وبالخصوص الوجهة الثقافية وقامت الأجيال السالفة بعمل ريادي في الكتابة التاريخية (طه حسين ، أحمد أمين ، جرجي زيدان ، حسن إبراهيم ، جواد علي) وهي كتابة أرادت لنفيها تجديد الرؤية للماضي . الا أن هذا المجهود انحسر كمياً في الستينات ، هذا مع ظهور المؤرخ المهني المختص في إطار الجامعات . ونتج عن هذا أنّا نجد مؤرخين جيدين ، لكن عددهم قليل ، وتأثيرهم على جمهور المثقفين أقل . ونذكر من بين رؤوس هذا الجيل الجديد عبد

١) لكن لا بد من ذكر المجهود الذي يقوم به مركز الدراسات الاستراتيجية للأهرام بالقاهرة تحت رعاية الدكتور سيد ياسين . من جملة الباحثين الجيدين الدكتور علي الدين هلال الذي انصب اهتمامه على مشاكل العلاقات الاقليمية وأكثر فأكثر على مشكلة ومفهوم الدولة — القائدة .

العزيز الدوري (تاريخ العراق الاقتصادي) وصالح أحمد العلي (التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري) . ثم تــــلاهما من بعد شعبـــــان Islamic History و Abbassid Revolution ، وفـــاروق عمـــر (طبيعـــة الدعوةالعباسية : العباسيون الأوائل) . ونسج على هذا منوال ص . العلمي والـدوري ، وهشام جعيط الـذي كتب في أطروحته عن «الكوفة في القرن الأول والثاني للهجرة» .

وهكذا فيما بين ١٩٤٨ ، وتاريخ بروز اطروحة الدوري ، و١٩٨١ تاريخ بروز أطروحة جعيط ، أي طوال مدة ربع قرن لا نجد الا خمسة مؤرخين اختصوا في الفترة الكلاسيكية الكبيرة ، أي الأربعة القرون الأولى وهي فترة لها دلالة خاصة . ان كتابات هؤلاء المؤرخين الخمسة هي تقريباً الوحيدة في كل الانتاج العربي في ميدان العلوم الانسانية المعترف بها عالمياً كبحوث جدية .

ومع هذا فهم قلة ، اضافة الى ما يجدون صعوبات في تكوين مدرسة تاريخية لولع الناس بكل ما هو حديث ومعاصر ، ولانصراف الباحثين عن كل ما هو «تراثي» ، في حين أن المسألة ليست مسألة تراث وإنما مسألة معرفة تاريخية مضبوطة وقائمة على أحدث المناهج . وعلى كل فهذه الدراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والحضاري تجاوزت بكثير كل ما كتب في السابق كما أنها تتجاوز الكثير مما يكتب الآن من تاريخ مبتذل ضعيف حتى في الأوساط الجامعية . أما ما يخص فترات أخرى ورقاع أخرى من الحضارة العربية ، فاننا نلحظ مجهوداً محترماً بالمغرب (بحوث العروي والجنحاني والطالبي) . لكن لا بد من أن نذكر أن الولع بالحديث والقريب منا لم يأت بثمار جدية : فهل لنا تاريخ جدّي لرقعة الهلال الخصيب منذ قرن . في هذا المضمار ما زلنا عالة على كتاب جورج أنطونيوس .

وأخيراً لا بد من الاشارة الى ما يقوم به الأثريون في العالم العربي (بمصر وبالخصوص بالعراق) من مجهود قيّم في استكشاف الحضارات القديمة .

أنّا نجد مجلات تاريخية قيمة منبثقة عن كليات الآداب في لوطن العربي (القاهرة – بغداد – البصرة – الرباط على سبيل المثال) كما أن **مجلة المجمع العلمي العراقي** تستحق الذكر والتنويه . لكن ما يلاحظ ويؤسف له هو فقداننا لمجلة تاريخية ذات قيمة عليا تشعّ على الساحة العربية بأكملها ، بينما مجلات الاستشراق كثيرة .

وواضح أن كل مشروع ضخم لكتابة التاريخ العربي ، على شرط أن يتحلّى بالمنهجية العلمية والمستوى الرفيع حتى يصبح مرجعاً عالمياً ، كل مشروع من هذا القبيل يكون محل ترحاب لأنه يجمع الطاقات المبعثرة . ونحن على علم بمشروعين من هذا القبيل : «مشروع التاريخ الاجتماعي العربي الاسلامي» ومقره الكويت ، و «مشروع الموسوعة الادارية» ومقره عمان . لعل في هذا ما يحفز همم الباحثين المعروفين وهمم الشباب ممن بقي ضائعاً تائهاً لا يرتئي لنفسه مستقبلاً في الأجهزة القائمة الآن .

٣ – تقييم عام وحلول للمستقبل

هناك عدة سمات بها الثقافة الفكرية العربية المعاصرة . وأول ميزاتها كونها **ثقافة تساؤلية** محمّلة بالرؤى المستقبلية أي هي ثقافة أمة تسائل نفسها عن مصيرها اليوم ، وعن علاقاتها بالعالم الخارجي ، وبماضيها على السواء . وليست ثقافة إبداعية بالمعنى الذي تحمل فيه نظريات عامة حول الانسان والتاريخ والمجتمع عامة . ولذا بدت التيارات التي تخترقها تيارات سياسية ومذهبية أكثر منها مدارس فكرية . فمن مفكر له اتجاه قومي الى آخر قطري ، ومن الاسلامي الى العلماني ومن التحديثي والمتغرب الى التراثي الى آخر ذلك ، وهذا الفاصل ندركه تقريبا في أي اختصاص معيّن ، لدى المؤرخ والفيلسوف وعالم الاجتماع والاقتصادي والمفكر السياسي طبعاً .

الى حد بعيد يبقى الفكر العربي **أسير النزعة الاصلاحية** بالمعنى العام ، وما زالت الثقافة العربية تخاصم نفسها والدنيا حول إشكالياتها الأساسية : لماذا تقدم غيرنا ولم نتقدم نحن ؟ .

ليس من شك في أن صدمة الحداثة لم يقع تجاوزها منذ قرن ونصف وأن البحوث الفكرية ما زالت تتخبط في مثل هذا الأفق **مع رجاء التأثير على الواقع مباشرة** . ويكون من عدم الانصاف أن نطالب الثقافة العربية الفكرية اليوم بأن

تتخلى عن المناخ الذي تعيش فيه كما عن الاشكاليات الموروثة فقد يكون هذا من باب المستحيلات . لكن مع هذا ولو قبلنا الأمر تماماً لوجب علينا أن نصرح بأن هذه الثقافة لا تساهم في المجهود البشري لفهم وعقل العالم الانساني في تاريخه واقتصاده وقوانينه الاجتماعية وسننه اللغوية وتجديد التفكير الفلسفي فيه .

فلئن وجب أساساً على العرب أن يقوم فكرهم بتفهم مشاكلهم الذاتية بتعميق أكثر للأمور وحذق أدق للمنهجيات ، فواجب على البعض منهم أن يشجعوا على خوض المعارك الفكرية العامة . واذا كادت النقطة الأخيرة تكون منعدمة ، فان النقطة الأولى تشكو أيضاً من ضعف كبير . وفي هذا الصدد لا بد أيضاً أن نميّز بين الانتاج الايديولوجي الموجه للجماهير (الذي قد يكون لازماً) والذي ينتج العدد الأوفر من الكتب والدوريات ، وبين الانتاج العلمي الجيد أو الانتاج الفكري العام ذي المرتبة الرفيعة .

هذه الدائرة الأخيرة – على الرغم من عناصر تقدم ملموسة – ما زالت ضئيلة . وقد أكون متعسفاً لو قلت إن العرب لم يصدروا أكثر من **مائة كتاب** في شتى الميادين المسوحة تتمتع بالمستوى المرجو ، وهي دراسات تخص وضعهم أو تاريخهم الخاص . والملاحظ مع هذا أن الثقافة العربية عريقة في هذه الميادين ، أي ميادين التحليل والعلم الانساني والقانون والتاريخ والاقتصاد . هي ثقافة فكرية ذهنية من قديم . وأدل دليل على ذلك أنّا نفخر بابن سينا والطبري والمقدسي والبيروني ، بينما يفخر الانكليز بشكسبير والفرنسيون بروائييهم أو كتّاب التراجيديا عندهم . الشعر والفكر هما سمات الثقافة العربية وليس الابداع الأدبي الخيالي . ليست الثقافة العربية القديمة – سوى في المستوى الشعبي المكبوت – ثقافة خيالية بل هي ثقافة جامعية وعقلية .

وبما أن التقليد الثقافي يسيطر على مناهج الابداع ، فلا أرى أن عرب اليوم سينبغون في الميدان المسرحي أو في الميدان الروائي أو في ميدان الفن الكلاسيكي ، بل في ميدانهم المعهود الذي كانوا يسمونه **علماً وحكمة** ونسميه اليوم : علوم إنسانية – علوم اجتماعية . تفكير شمولي يتسم بالعمق . واذا عجز العرب عن إنشاء سوسيولوجيا بالمعنى الصحيح وتاريخ وعلم جغرافيا واقتصاد وعلم سياسة ، فهم في غير ذلك أعجز ! إن كل عمل في سبيل إحياء هذا الاستعداد وخلق كيان علمي وفكري لعرب اليوم هو عمل ذو بُعد مصيري . لأن الأمة قامت على **فكرة مجدها الثقافي** وهذا منذ أكثر من قرن ، ولا يمكن البتة أن ينحصر هذا المجد في الماضي ، بل علينا أن نؤسس مجداً جديداً يعطي الأمة العربية مقامها بين الأمم .
ثم إن هذا المجهود لو أعطي حقه ، لرفع على الأمد البعيد المستوى الذهني لأمة بأكلها وأقحمها قسراً وعلى المستوى العميق في العقلانية الحديثة .

صور المستقبل أو شروط التقدم

- تحسيس الحكومات والجماهير بهذه القضية وتشجيع القراءة وتحسين صورة العالم المفكر .
- لا بدّ من سياسة كتاب حكيمة .
- الجامعات العربية غير مؤهلة اليوم للقيام بهذا المجهود ولذا وجب تعزيز وتطوير كل الأقسام المعنية.
- وجوب تكوين مراكز للعلوم الانسانية والاجتماعية متفرغة تماماً للبحث ومنحها الاستقلال التام عن النظم الحاكمة والهيئات الايديولوجية .
- وجوب تكوين مركز عربي يمسح الساحة العربية كلها ويكون من طراز عال للبحث والتفكير الحر ، يلتقي فيه علماء زائرون من الوطن العربي ومن الخارج على السواء . ويقع فيه تبادل الآراء والبحوث والتفرغ للكتابة لمن يشاء . ويجهّز هذا المركز بمكتبة شاملة. ولا يكون شكله بيروقراطياً .
- وجوب تدريج الطلبة على معرفة اللغات الأجنبية
- لا بد من إخراج العلماء العرب من الفاقة العادية كي يتفرغوا تماماً لأبحاثهم وأعمالهم .
- تشجيع مشاريع تستهدف :
  - تكوين مجلات علمية دورية ذات سمعة عالمية وهذا على النطاق العربي ، أي لا بدّ من مجلة تاريخية عربية وأخرى لعلم الاجتماع وأخرى للعلوم السياسية وغيرها للفلسفة وأيضاً للاقتصاد .

اننا نلاحظ وجود مجلات ثقافية ممتازة ، لكن لا وجود لمجلات ذات طابع علمي أكاديمي .

ان المشاريع الكبيرة كتصنيف موسوعة تاريخية وموسوعة فلسفية . . الخ لها في الظرف الحالي أهمية بالغة لاستقطاب وتجميع القوى ، وفتح أبواب الأمل والطموح أمام الباحثين .

خاتـمة

لقد حصل في الجملة تقدم نظري في معالجة مشاكل العالم العربي من الوجهة الفكرية . فلم نعد عالة على المستشرقين في دراسة تاريخنا ولا على الخبراء الأجانب في دراسة اقتصادنا . لكن نلحظ أن هذه المجهودات قامت بفضل أناس آمنوا بالفكر والثقافة ، وقليلاً ما حظوا بتشجيع من الحكومات أو الجماهير والخطر اليوم أن يهدر هذا المجهود وأن ينقرض علماؤنا دون أن يتمكنوا من تكوين أجيال جديدة على ما يلزم من حب للمعرفة ومنهجية كاملة . هذا تخوف ليس مصدره التشاؤم وإنما حقيقة الأمور . وعلى العكس ، لو صحّت العزيمة وتظافرت الجهود وأعطيت الامكانيات المادية والأدبية وتحسن المناخ العام ، فليس من المستحيل أن ندخل الألف الثالث مسلحين بنخبة ممتازة وبعلم عربي صحيح يكون له من التأثير القريب والبعيد ما قد ذكرت .



ملحق

من الدراسات الجديدة التي تسترعي الانتباه نذكر :

– د . الجابري : الخطاب السياسي العربي ، الطليعة ، بيروت ١٩٨٢ .

– د . عبد الفضيل : الفكر الاقتصادي العربي .

– د . عادل حسين : الاقتصاد المصري من الاستقلال الى التبعية ، (١٩٧٤ – ١٩٧٩) ، المستقبل العربي ، القاهرة ، ١٩٨٢ . بالنسبة لنظريات التنمية ، هذا الكتاب يمثل نقداً للنظرية الغربية كما للنظرية الماركسية .

ولنذكر من جملة الاقتصاديين فؤاد مرسي (لم يصل الى مستوى عال في التنظير) وجلال أمين (نجد عنده نقداً لنموذج التنمية) . أما سمير أمين فدراساته تبقى محلاً للنقاش .

اردموته هللر

شهرزاد والحركة الرومانتيكية في أوروبا

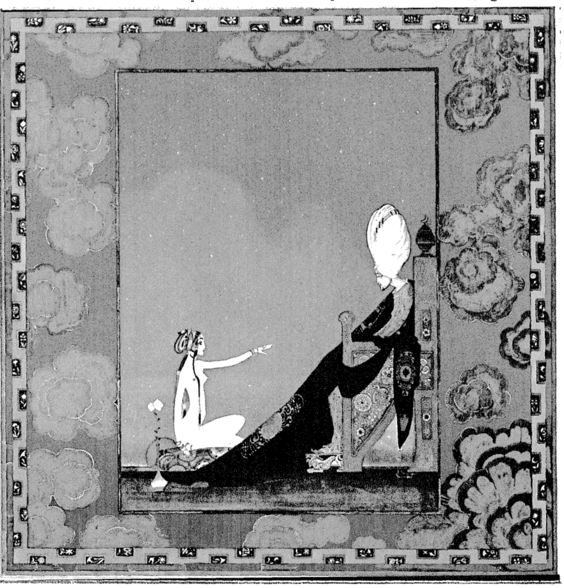
حدث مراراً منذ عصر النهضة أن قام أشخاص باداء أدوارهم على المسارح الايطالية متنكرين في زيّ «الشرقيين» . ولم يكن الشاعران الايطاليان «اريوست Arioste» (١٤٧٤ - ١٥٣٣) و «تاسو Tasso» هما الوحيدان اللذان نزعا الى



كاي نيلسن : رسوم مستوحاة من الف ليلة وليلة .

الاغرابيـة اذ لم يمض وقت طويل حتى بـدأ الممثلـون في مسرحيات موليير Molière (١٦٢٢ - ١٦٧٣) يرددون كلمات تركية أثناء تأدية أدوارهم . وفي القرن السادس عشر عندما بدأ أوائل الأوروبيين تدريجياً في الترحال الى الشرق ، أخذ بعَضهم بعد العودة الى أوروبا في ارتداء ملابسهم على «القـط التركي» ، أي السروال الفضفـاض والطربـوش والجوارب البيض .

انعكست عالمية العصر الجديد وتطلّعاته الموسوعية في أدب متكلّف ومتصنّع وفي حاجة ملحة نحو التغريب الثقافي . وجاء التدهور التدريجي لسيطرة الايديولوجية المسيحية ، ليسهّل توجه أوروبا الثقافي باتجاه العالم الاسلامي . وفجأة أصبح للشرق أثر سحري على أوروبا . ولم يعد عالم الخلفاء والحكايات الخرافية والخوارق والمغامرات والقصص الخيالية يجذب اليه الرحالة والرسامين فحسب ، بل الشعراء والأدباء أيضاً . غير أن هؤلاء - وهم يتغنون بهذا الشرق «الجديد» - ظلّوا أسيري تلك الصور الوهمية التي ساهم الرسامون الاستشراقيون في ايصالها اليهم . ونحن نجد هـذه الصورة واضحـة في أعمـال موليير «البورجـوازي النبيــل» وراسين Racine (١٦٣٩ -



كاي نيلسن : رسوم مستوحاة من ألف ليلة وليلة .

١٦٩٩) «باجزيه» ومونتسكيو Montesquieu (١٦٨٩ – ١٧٥٥) ، «رسائل فارسية» وڤولتير Voltaire (١٦٩٤ – ١٧٧٨) ، وشاتوبريان Chateaubriand (١٧٦٨ – ١٨٤٨) ولامارتين (١٧٩٠ – ١٨٦٩) وفلوبير Flaubert (١٨٢١ – ١٨٨٠) «صالامبو» .

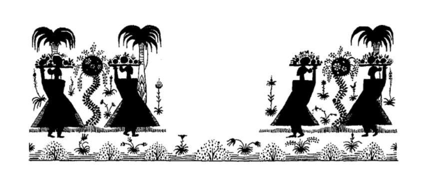
لا تعكس صور الغرب عن الشرق الآ جزءاً من الواقع . وهي تعكس بالدرجة الأولى وضعاً تاريخياً : إذ منذ حصار فيينا عام ١٦٨٣ بدأ تحوّل تدريجي في رؤية أوروبا للشرق الذي كان الأتراك العثمانيون آخر ممثليه التوسعيين . ولم يعد ينظر اليه كشيطان مخيف . صحيح أن الشرق الاسلامي ظل بالنسبة لأوروبا عدوّاً ولكنه كان عدوّاً مدحوراً مصيره الفشل والهزيمة ونظراً لأنها شرعت منذ القرن الثامن عشر في الإعداد للاسراع بهذه الهزيمة ، فقد أباحت لنفسها تمجيد الشرق كمهد للديانات والحضارات القديمة . وكان هذا التمجيد يتعاظم كلما ازداد تدهور الشرق وسقوطه . وقد نتج عن هذا التمجيد ظهور عدد كبير من اللوحات والكتب الرومانسية مستوحاة من العالم الاسلامي ظل جمالها الساحر الرائع أسطورة قائمة بذاتها مثل الشرق . .

بروعة وجلال
تخطّى الشرق البحر المتوسط
وحده الذي يعرف «حافظ» ويحبه
يقدر أن يدرك ما غناه «كالديرون»

عندما كتب غوته Goethe أبياته الجميلة هذه ، كانت أوروبا قد شارفت حينذاك على أبواب قرن شكّل ولم يزل يشكّل صورتنا عن الشرق وعن عالم الاسلام . ونظراً لانعدام مصلحتنا في ذلك الوقت ، في الحصول على معرفة موضوعية حول ذلك ، فقد ظلت تلك الصور الوهمية والمهزوزة قائمة الذات .

ساهمت في المقام الأول حكايات ألف ليلة وليلة في خلق تلك الصور الرومانسية الخيالية عن الشرق ، إذ حملته معها ونقلته الى الغرب . وتسنّى للغرب من خلال حكايات شهر زاد اكتشاف الشرق . ولا يوجد مؤلّف شرقي أثر تأثيراً قوياً في الأدب الأوروبي مثل تلك الحكايات الشعبية الرائعة والجذابة . وبين ليلة وضحاها أصبح هذا الكتاب جزءاً لا يتجزأ من الأدب العالمي تماماً مثل «الإلياذة Ilias» هوميروس ، و«آينيز Aeneis» و «ڤرجيل Vergil» و «ديكاميرونه Decamerone» و «بوكاتشيو Bocaccio» والملحمة الالمانية القديمة المسماة Nibelungenlied .

خلال القرن الرابع عشر بدأ الأوروبيون عن طريق الرحالة القلائل للشرق ، يعرفون الاطار العام لقصص شهرزاد الجميلة التي حاولت طوال الف ليلة وليلة ، أن تقصّ على الملك شهريار حكايات عجيبة لتصدّه عن قتلها . وكان التأثير الأول في ايطاليا . وكان بوكاتشيو أول من استفاد من الاطار العام لالف ليلة وليلة وذلك في رائعته «ديكاميرونه» ومعناها «الأيام العشرة» .



ولكن المؤلف الأصلي لم يشتهر ولم ينتشر في أوروبا الا بعد ظهور الترجمة الفرنسية التي قام بها المستشرق الكبير أنطوان غالان (١٦٤٦ - ١٧١٥) . خلال أسفاره الكثيرة عبر بلاد الشرق ، انتبه غالان الى ذلك العدد الوفير من القصص والحكايات الخرافية والملاحم النثرية والخوارق التي كانت تُروى في أسواق ومقاهي وشوارع دمشق والقاهرة وبغداد والبصرة ، وأيضاً حول مواقد النار في الأماكن التي تستريح فيها القوافل .

وقد استند غالان في ترجمته التي قام بها للملك لويس الرابع عشر ولحاشيته ، الى عدة مخطوطات عربية ، والى الروايات الشفوية المنقولة من جيل الى جيل وبقدرة فنية مذهلة تمكن من أن يكيّف الشبق الشرقي مع ذوق «العصر الكبير» Le Grand Siècle الذي كانت تعيشه فرنسا آنذاك .

صدرت الترجمة المذكورة عام ١٧٠٤ وعام ١٧١٧ في إثني عشر مجلداً . غير أنها كانت مبتورة الى حدّ ما ، إذ أنه تم حذف الفقرات والمقاطع المتنافية مع اخلاقية ذلك العصر . ولا عجب في ذلك ، فحكايات الف ليلة وليلة - وهي نتاج مرحلة الازدهار الفكري والفني في عصر العباسيين - قد اتسمت بالحرية المطلقة ، وعكست جواً يعبق بالاثارة والشهوانية . وهو ما كان متنافياً مع تلك الرؤية المنمطة والضيقة والديكارتية التي كانت سائدة في فرنسا آنذاك .

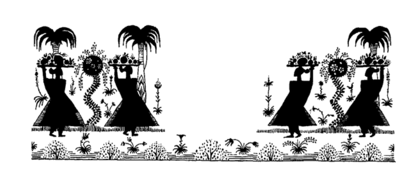
يمكن القول أن غالان لم يقم بترجمته ملتزماً بالنصوص الأصلية المتوفرة ، وإنما أعاد صياغتها بالفرنسية كما تمثلها . وقد كتب الفقرات العربية المكتوبة بلغة متعثرة ، بلغة فرنسية سلسة ومصقولة . كما أعاد صياغة المقاطع الشعرية نثراً وحذف بعض التفاصيل تماما ، وبنى من جديد حكايات كثيرة مستغنياً - مراعاة لاخلاقية عصره - عن فقرات وأحداث ربما كانت تبدو مبتورة ، أو غريبة ، أو غير مألوفة بالنسبة للفرنسيين في ذلك الوقت .

ولكن رغم الاسقاطات والتغييرات التي أجراها غالان على النص العربي ، فان ترجمته تلك هي التي ولّدت ذلك الحماس الكبير لمعرفة الشرق وتلك الرغبة المحمومة في الضياع في متاهاته الشاسعة .

وقد بدأ هذا التوجه الجديد في فرنسا في منتصف القرن الثامن عشر ، ثم انتقل الى انكلترا ليصل أخيراً الى المانيا . ويمكن القول بأن الحركة الرومانسية مدينة بدرجة كبيرة لهذه الترجمة . بل أن هناك من يذهب أبعد من ذلك ، ويقول أن الرومانسية الأوروبية قد ظهرت في تلك اللحظة التي قام بها شخص ما في النورماندي بقراءة ترجمة غالان لالف ليلة وليلة .

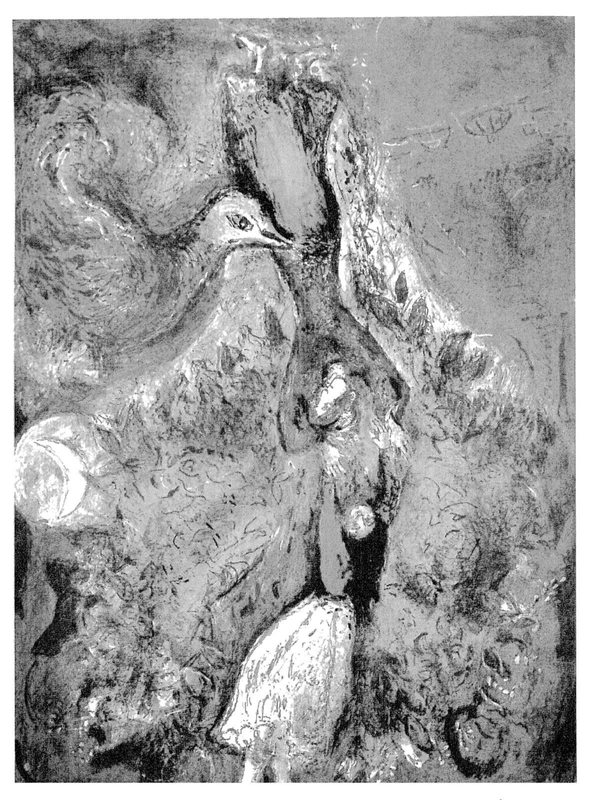
الشرق - «العالم المغاير» - لأوروبا

خلال القرن الثامن عشر ، حاولت أوروبا العقلانية والمتجهمة والضجرة الى حد ما ، أن ترى في الشرق «صورتها





مارك شاغال : قصة حصان الابينهولس الثالث .
(الورقة ١٢ من اللوحات الخاصة بالليالي العربية) .



مارك شاغال : قصة الجلّنار ، جنية البحر وابنها الملك بدر الفارسي (٣) .
(الورقة ٦ من اللوحات الخاصة بالليالي العربية) .

المغايرة» ومبهراً لأحلامها ولرغباتها المحمومة والمكبوتة ، وقد ألهبت الاغرابية الاستشراقية خيال الرسامين ، وطوّحت بهم بعيداً في مملكة الحلم والسحر . وكانت النتيجة ذلك الاحتفال الصاخب بالألوان لابراز الدهشة والانبهار أمام عالم غريب وجذّاب : عالم المآذن والمساجد ودور الحريم . وكل ذلك نجده في لوحات ديلاكروا Delacroix ودي كامب Decamps وجيروم Gérôme وأنغرس Ingres وباورن فايند Bauernfeind ودويتش Deutsch وآخرين .

إن كتاب الف ليلة وليلة هو الذي شكّل ولا يزال يشكّل «صورة الشرق» . وفي إحدى مقالاته قام جورج لويس بورخس – الكاتب الأرجنتيني الكبير – من خلال منظور سياسي وفلسفي بتحليل ذلك الافتنان بالشرق الذي بلغ أحياناً حدود اللاعقلانية . وهو يرى أن هذا الافتنان يعود الى عنوان الكتاب نفسه والذي يعتبره من أروع العناوين في العالم وهو يقول في هذا الصدد : «الف ليلة وليلة : أريد أن أتوقف عند هذا العنوان . إنه أحد أروع العناوين في العالم ، أروع من عنوان «دون» : «تجربة مع الزمن» . ولهذا العنوان اليوم جمال آخر . وأعتقد أن كلمة «الف» لها مرادف «الانهائي» . وعندما نقول «الف ليلة وليلة» فاننا نعني بذلك ليالي كثيرة لا يمكن عدّها . وعندما نقول «الف ليلة وليلة» ، فاننا نضيف ليلة الى الليالي التي لا تنتهي ، ويمكننا أن نتذكر العبارة الانكليزية « أحيانا لكي نقول «الى الأبد» (For ever) نقول «الى الأبد ويوم آخر» (For ever and a day) ، يضاف «يوم» الى كلمة «الى الأبد» . وهذا يذكّرنا ببيت هاينريش هاينه Heinrich Heine : «أحبك والى الأبد وربما الى أبعد من ذلك !» .

ويعيد بورخس هذا الافتنان العفوي بالشرق أيضاً الى كلمة «الشرق» Orient نفسها . فحين ننطق بهذه الكلمة تتبادر الى أذهاننا كلمة «OR» أي الذهب وكلمة «AURORE» وتعني حمرة الفجر . ذلك أن الشمس حين تبزغ تتلون السماء باللون الذهبي كما ورد في جملة دانتي Dante الشهيرة : Dolce color d'oriental Zaffiro .

وقبل أن نستعرض تأثيرات الف ليلة وليلة على الحركة الرومانسية الأوروبية في بداياتها لا بد أن نشير الى أن ترجمة غالان حفّزت آخرين للقيام بنفس العمل . غير أن ترجمة غالان ظلت رغم ذلك الأكثر اتقاناً والأكثر إقناعاً . ومن الأكيد أن أغلبية الشعراء الرومانسيين الأوائل اطلعوا عليها واستلهموا منها تلك العوالم الحارة والعنيفة التي تميزت بها أشعارهم . ولقد قام بين الشاعر الالماني ڤيلهلم شليغل Wilhelm Schlegel والرومانسي الانكليزي صامويل تايلور كوليردج Samuel Tayler Coleridge نقاش حاد حول أصل الف ليلة وليلة ومؤلفيها . وانخرط في هذا النقاش مستشرقون مشهورون في ذلك الوقت منهم : يوسف فون هامربورغستال Joseph von Hammer-Purgstall وسلفستر دي ساسي Silvestre de Sacy وفي ما بعد وليم لين William Lane . وفي سنوات لاحقة أراد بنيامين دزرائيلي Benjamin Disraeli (١٨٠٤ – ١٨٨١) إصدار طبعة جديدة تتضمن فصلاً من تأليفه .

شهرزاد في إنكلترا :

حاولت إنكلترا خلال العصر الفيكتوري أن تفلت من التزمت والتقاليد الصارمة بالهروب الى عالم سحري ، هو عالم الشرق . وكانت هذه الرغبة في الرحيل باتجاه الشمس والغموض والأحلام بمثابة رد فعل على سيادة العلم والنفعية المادية في عصر التنوير . وقد وجد التحول الاجتماعي والسياسي الذي تم في بداية المجتمع الصناعي نقيضه في عالم التخيلات المحض وفي الأساطير . غير أن ذلك التوجه كان نحو اللانهائي والميتافيزيقي والغامض . وعلينا أن ننتظر أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين لكي تدرك أوروبا تلك «الحكمة» السياسية بمفهوم هاينريش بلْ التي تضمنتها قصص وحكايات شهرزاد .

وفي إنكلترا كانت الف ليلة وليلة منبع إلهام الجيل الأول من الشعراء الرومانسيين مثل صامويل تايلور كوليردج (١٧٧٢ – ١٨٣٤) ووليم وردزورث (١٧٧٠ – ١٨٥٠) ووالتر سكوت (١٧٧١ – ١٨٣٢) وتوماس كارليل (١٧٩٥ – ١٨٨١) واللورد بيرون (١٧٧٨ – ١٨٢٤) وتوماس مور (١٧٧٩ – ١٨٥٢) وجون كيتس (١٧٩٥ – ١٨٢١) .

وكان اللورد بيرون من أوائل المستفيدين من الف ليلة وليلة . ويبدو ذلك واضحاً في عمله «الحكايات الشرقية» الذي كتبه

بنفس أسلوب الرومانسيين الأوائل : روّية الشرق كأرض كلها مغامرات محيّرة وعواطف جيّاشة وقسوة غاشمة ، أرض «فانتازيا» يسكنها السحرة والجانين والمخلوقات المتعددة الأشكال والألوان .

وبفضل هذه الرؤية حقق «بيرون» نجاحاً منقطع النظير حتى أنه نصح «توماس مور» بضرورة التركيز على الشرق . وقد أخذ «مور» هذه النصيحة بعين الاعتبار في روايته «لا لا روخ» ملبياً بذلك حاجة قرائه المتلهفين الى الشرق وبالأحرى الى صورته المهيمنة على مخيلتهم منذ عصر النهضة ، صورة مشبعة بالرغبات والخيالات الجامحة . وليس «بيرون» وحده الذي استأثر الشرق بخياله . هناك أيضاً «وليم وردزورث» الذي شارك «كولريدج» في تمهيد الطريق لقيام الحركة الرومانسية في انكلترا حين أصدر مجموعته «أساطير شعرية» . وكان قد تأثر في شبابه بالروايات الشرقية التي كان يسمّيها «كنز الليالي العربية الرائع» .

أما «والتر سكوت» مؤسس الرواية التاريخية الحديثة في الأدب الانكليزي فينتهج في روايتي «ويفرلي» و «قصة صاحب البيت» نفس الأسلوب الوثائقي الدقيق «لليالي العربية» . وقد قامت مجلة «بريتيش كريتيك» بمقارنة لروايات سكوت هذه «بالليالي العربية» لأنها حسب رأيها تعطي هي الأخرى صورة صادقة للعادات والتقاليد الشرقية . وكان صامويل تايلور كولريدج مثل غوته من المعجبين بالأسلوب القصصي لحكايات شهرزاد وبتداخل الأحداث فيها وهو ما ساهم في استثارة ميله الى الظواهر الروحية والخارقة . وكان كولريدج مثل «هوغو فون هوفمنستال Hugo von Hofmannsthal» يحس أثناء قراءة تلك الحكايات بخليط غريب من الخوف الغامض والرغبة النارية والعشق المتوجس . وظل ذلك يلازمه طول حياته . ويرى كولريدج أن قصص شهرزاد شبيهة بالأحلام ، إذ انها لا تبعدنا عن الواقع ولكنها تعطينا صورة مغايرة له ، تلك الصورة التي لا يقدر على إدراكها العقل ونحن نجد في قصتيه «البحار القديم» و«الليالي العربية» أن الروح الحالمة تسلّم نفسها الى تيارات لا تحصى من الأفكار والأحاسيس والصور المتداعية مثلما يقع في الحلم تماما أو مثلما الأمر في قصة الأمير أحمد وفي بداية رحلة سندباد السادسة بعد أن غرقت سفينته . خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر كانت انكلترا منبهرة بكتاب الف ليلة وليلة لغرابته وللعناصر الخيالية وللمغامرات الخارقة التي احتواها . أما في العصر الفيكتوري فان الشعراء والأدباء أقبلوا عليه بسبب قيمته الفنية والأدبية وطريقته الرائعة في وصف الواقع والنفاذ الى دواخل النفس البشرية وحكمه الفلسفية . ومن المعلوم أن هناك طبقة متوسطة ظهرت في انكلترا بعد احتلالها للهند وبعد توسعها في الشرق وكانت لها مصالح واضحة وملموسة في التعرف على تاريخ تلك المنطقة وعلى شعوبها وعاداتها وأفكارها وهذا ما ساعد كتاب الف ليلة وليلة على الانتشار بسرعة خارقة في أوساط الأدباء والشعراء في انكلترا .

شهرزاد وأدباء الرومانتيكية الألمان

مثلما حدث في انكلترا ، أثارت حكايات الف ليلة وليلة أيضاً في ألمانيا في النصف الأخير من القرن الثامن عشر موجة من التوق والحنين الى الشرق . وبالمثل فان معظم أدباء الرومانتيكية الألمان لم يتعرفوا في البداية على كتاب الف ليلة وليلة الا عن طريق ترجمته الفرنسية التي قام بصياغتها غالان Galland . وقد ظهرت عام ١٧١٠ أول ترجمة ألمانية قام بها تالاندر Talander عن النص الفرنسي لغالان ، وذلك قبل أن ينهي غالان ترجمته الكاملة لالف ليلة وليلة Mille et Une Nuits ولم يكن هذا الكتاب الذي يُعدّ «أكثر كتب القصص الخرافية حظوة في العالم» يعتبر في ألمانيا حينذاك سوى مطالعة للترفيه والتسلية ، كما أن ترجمة غالان غير الكاملة بقيت لفترة طويلة النص الوحيد المتاح . وقد أرجع الكاتب جيورج كريستوف لشتنبرج (١٧٤٢ - ١٧٩٩) Georg Christoph Lichtenberg ذلك التقصير الى افتقار المستشرقين الى الاحساس المرهف . إذ كان من رأيه «أنه يوجد في الألف ليلة وليلة حكمة مفيدة وعقل سليم أكثر مما يعتقد كثير من الناس الذين يدرسون العربية ، ولو انتبهنا الى هذه الناحية لكان لدينا الآن على الأرجح ترجمات لبقية الأجزاء .» . ولم يعكف المستشرقون الالمان على نقل هذا العمل الأدبي من العربية مباشرةً الى الالمانية إلا بعدما صدرت النسخات الكاملة الأولى من الأصل العربي في النصف الأول من القرن

التاسع عشر (النسخة الأولى المطبوعة في كلكتا عام ١٨١٤ ، والنسخة المصرية المطبوعة في بولاق) . وقد بيّن يوسف فون هامر - بورجستال – الأستاذ العتيد للدراسات العربية الالمانية – دوافع جهده الشديد في إعداد ترجمة ألمانية لهذا العمل الأدبي بأكمله على النحو التالي : «من هذه الحكايات نتعرف على العرب أنفسهم : تحت خيام البادية وفي بلاط الخليفة ومع القوافل الراحلة وفي داخل مقصورة الحريم» . وقد قام فريدريش روكرت Friedrich Rückert (١٧٨٨–١٨٦٦) ، الذي استُدعِي عام ١٨٢٦ لتولي منصب أستاذ اللغات الشرقية بجامعة إرلانجن ، هو أيضاً باقتباس حوافز فكرية أو أحداث عديدة من الف ليلة وليلة في كتاباته وقصائده ، كحكاية الضرير «بابا عبد الله» على سبيل المثال .

وقد كان روكرت هو الشاعر الالماني الوحيد الذي له إتصال مباشر بالأصل العربي لالف ليلة وليلة . وقد قدّم واحداً من المداخل الرائدة الى الثقافة والتاريخ الاسلامي في مجموعاته الأدبية «»مباهج وتأملات من الشرق» Erbauliches und Beschauliches aus dem Morgenland ، و«سبعة كتب أساطير وحكايات من الشرق» -Sieben Bücher morgenlän discher Sagen und Geschichten . بيد أن روكرت كان شاعراً أكثر منه عالماً . وقد ذاع صيته في ألمانيا على الأخص من خلال ترجمته للشعر العربي القديم . وقد شيّدت ترجماته الحرة «لمقامات الحريري» ، و «لأشعار الغزل» للمتصوف جلال الدين الرومي ، ولأجزاء كثيرة من «جوليستان» Gulistan لسعادي أسس تقاليد الترجمة الشعرية المبدعة في ألمانيا لقصائد من مناهل الأدب الكلاسيكي العربي والفارسي .

ولقد كان لكتاب الف ليلة وليلة ، كتاب السحر من الشرق ، تأثير سحري بوجه خاص على شعراء فترة «الغليان والفوران» Sturm und Drang وعلى شعراء ، مثل : لشتنبرج Lichtenberg ، ويوهان جوتفريد هردر Johann Gottfried Herder (١٧٤٤ – ١٨٠٣) ، والأخوين فون شليجل Von Schlegel (أوجست ڤيلهلم ١٧٦٧ – ١٨٤٥ وفريدريش ١٧٧٢ – ١٨٢٩) ، والأخوين جريم Gebrüder Grimm (ياكوب ١٧٨٥ – ١٨٦٣ وڤيلهلم ١٧٨٦ – ١٨٥٩) ، ونوڤاليس Novalis (واسمه الحقيقي فريدريش ليوپولد فرايهر فـــون هـــــاردنبرج Friedrich Leopold Freiherr von Hardenberg ١٧٧٢ – ١٨٠١) ، وأدلبرت فون شاميسّو Adelbert von Chamisso (١٧٨١ – ١٨٣١) ، وكليمنز فون برينتانو Clemens von Brentano (١٧٧٨ – ١٨٤٢) ، وهاينريش هاينه Heinrich Heine (١٧٩٧ – ١٨٥٦) ، وڤيلهلم هاوف Wilhelm Hauff (١٨٠٢ – ١٨٢٧) ، وكريستيان فريدريش هبّل Christian Friedrich Hebbel (١٨١٣ – ١٨٦٣) – ولكن على وجه الخصوص أيضاً يوهان ڤولفجانج فون جوته Johann Wolfgang von Goethe (١٧٤٩ – ١٨٣٢) .

وصف چين بول Jean Paul كتاب الحكايات الخرافية «بأنه الكتاب المفضّل ليس فقط للكاتب والفيلسوف الفرنسي مونتسكيو Montesquieu بل أيضاً لكل صديق للشعر الرومانسي» . وكتب هردر يقول : «لقد رفّه كتاب الف ليلة وليلة عن أكثر من ألف قارىء وقارىء» . أما الاخوان جريم فقد نوّها «بالألوان الوهّاجة والجمال المرهف والشذى العطري للخيال المزدهر في صفاء وبالحياة النابضة في كل مكان » .

وقد مهّد هردر – الذي كان يعتبر اللغة ، والشعر بالذات كأسمى صورة للغة ، أكثر الوسائل مباشرةً لإظهار جوهر وطبيعة الشعوب والعصور التاريخية – المناخ الأدبي لفترة الغليان والفوران . وقد أشار في «مقالاته حول التاريخ العالمي» Aufsätze zur Universalgeschichte الى المساهمة الاسلامية في الثقافة العالمية ، بعدما اشتغل لفترة طويلة بالآداب الشرقية . كان العرب في رأيه «معلّمي أوروبا» . وفي سعي الانسان للبحث عن الاخلاقية والانسانية العامة اكتشف الآثار الأدبية للشعوب الأخرى – وعلى وجه الخصوص أشعار العرب والفارسيين . والسبب في ذلك – كما يقول ڤولفديتريش فيشر Fischer في مقال له تحت عنوان «لقاء مع أدب الشعوب الاسلامية في أوروبا» -Begegnung mit der Li teratur der islamischen Völker in Europa – هو أنه «في الشعر تتجلى الانسانية بأسمى صورها التي ارتقت اليها الحضارة الخاصة بها .» وكتب يوهان جيورج هامان Johann Georg Hamann يقول : «الشعر هو اللغة الأم للجنس البشري» . وقد انهمك يوهان جوتفريد هردر في دراسة اللغة والآداب الشرقية على نحو قلما فعله أحد غيره .

وقد أثار اشتغال هردر بالشعر العربي الاسباني إعجابه الشديد بالثقافة العربية الاسلامية . كان هردر مقتنعاً بأن الشعر الوجداني البروفانسي نابع – بصورة مباشرة أو غير مباشرة – من الشعر العربي . وكان يؤمن بالرأي الذي يقول أن البواعث الأولى لحركة التنوير العقلي في أوروبا ترجع الى الاحتكاك مع الحضارة العربية في صقلية واسبانيا . وفي عمله أدراستيا Adrastia ، وهو مقالات عن الأدب أنجزها هردر في الأعوام ١٨٠١ ـ ١٨٠٣ يدوّن هردر ما يلي : «اللهم جنّبنا الوبال الذي يوجّه الأمور على نحو غريب ، ولا تحرم قارتنا الأوروبية أبداً من السندين الاثنين للعالم شرقه وجنوبه ، ألا وهما اللغتان العربية والفارسية» .

كان جوته على العكس من ذلك أثناء إنشغاله بآداب الشرق متمسكاً بعقلية زمن قد ولّى وإنصرم – أي بالموقف الكلاسيكي الذي رفع مكانة الشرق كسحر سرمدي . لقد كان جوته في مراحل إنتاجه الأدبي المختلفة معنياً دائماً وأبداً بالشرق . وقد دفعته دراسته للقرآن الكريم الى الاهتمام بالاسلام وبسيرة محمد . ومن المرجّح أن تكون رواية ڤولتير Voltaire الدرامية «محمد» قد ألهمت جوته أن يكتب هو الآخر قصةً درامية عن محمد ، بيد أنها بقيت للأسف أجزاء متناثرة . وقام جوته نفسه بترجمة بعض آيات القرآن الكريم عن ترجمة لاتينية لماركيوس . وترجع رواية أدب الرعاة الرُكوكية «نزوة العاشقين» وكذلك شخصية الحلاق في رواية Wilhelm Meisters Wanderjahre بلا ريب الى ايحاءات فكرية استلهمها جوته من الف ليلة وليلة . ومن المحتمل أيضاً أن تكون مطالعاته لمجموعة الحكايات الخرافية وقربه من هردر قد استثارت إهتمامه بالشعر العربي الكلاسيكي . غير أن جوته لم يعكف على الدراسة العميقة لالف ليلة وليلة الا في الفترة ما بين عامي ١٨١٤ – ١٨١٩ ، أي أثناء تأليفه لروايته الشعرية «الديوان الشرقي – الغربي» التي إنصبت فيها كل الايحاءات التي استلهمها جوته من شعر الشرق ومن القرآن الكريم ومن المعلقات ومن أبيات شعر جلال الدين الرومي وفريد الدين العطار ، وكذلك من حكايات الف ليلة وليلة .

ذكرت كاتارينا مومزين Katharina Mommsen ، الأستاذة المتخصصة في دراسة جوته ، في كتابها «جوته والف ليلة وليلة» ما يلي : «سوف ينبغي لحقيقة الآتية أن تظل دائماً مدعاة للاستغراب ، وهي أن يحدث في القرن الثامن عشر بالذات ، قرن التنوير والفلسفة العقلية وذوق التقليد للطراز الكلاسيكي ، إستيعاب وتقبُّل لألف ليلة وليلة بمثل ذلك القدر من الترحاب والامتنان . غير أنه من المحتمل أن يكون العكس هو الأقرب للصحة ، أي أن التنوير بالذات كحركة لتحرير الأنماط الفكرية والتصورات الاخلاقية المأثورة والمحددة بالطابع الديني قد خلق بتوجهه نحو العقلانية والشمولية والعالميـــة الأسباب الحقيقية لانفتاح الأوروبيين الذهني تجاه القيم الفكرية للشرق» . وفي باكورة أعماله الأدبية التي اتسمت بالطابع الكلاسيكي يختلف جوته عن بقية أقرانه من أدباء الرومانتيكية ، ذلك أنهم كانوا لا يبحثون في سحر الاستقلال الذاتي للحياة الفكرية الذي إنطلق من معاقله عما هو صحيح بصفةٍ عامة ، بل كانوا يبتغون الغريب والعجيب والشاذ المثير للسخرية . الابداع الفكري والأصالة ، والموهبة على المعايشة القوية المباشرة للظروف ، والقدرة على الافصاح التعبيري ، كل تلك الأمور كانت بالنسبة لهم المقاييس الجديدة للشعر الأصيل . غير أنه في الواقع لم يُتح للشعر الأصيل أن يتطور ويتقدم إلا عن طريق التضافر والتنمية المتآلفة لجميع الطاقات البشرية – وليست فقط للطاقات العقلية منها كما كان يرى هؤلاء الأدباء .

ولم يحظى في التلاقي مع ذلك التيار العصري كتابٌ بنفس المنزلة التي ارتقت اليها ملحمة القصص الخرافية من الشرق التي طالما استلهم من كنوزها الفكرية الجمة أدباء الرومانتيكية الألمان الكثير من الايحاءات والتحفيزات الفكرية : فعلى سبيل المثال كان إشتغال أوجست فون پلاتين Platen (١٧٩ – ١٨٣٥) بدراسة الف ليلة وليلة حافزاً له على نظم ديوانه الشعري «العباسيون» (الذي ظهر عام ١٨٣٣) وعلى تأليف كتاب «الغزل الشرقي» . ونقل ڤيلهلم هاوف – الذي تأثر بڤالتر سكوت Scott تأثراً شديداً – غالبية قصصه المشهورة الى عالم «أبسطة الريح الطائرة» و«اللقلق خالف» . وبالمثل فان إنتاج فريدريش هبّل الأدبي «روبين» قد نشأ تحت تأثير «أغنى كتاب صور في العالم» – والذي سماه هرمان هسّه Hesse (١٨٧٧ – ١٩٦٢) فيما بعد «مجموعة الحكايات الخرافية Märchensammlung . وإرتبط ڤيلاند Wieland في كثير من أعماله الأدبية بالف ليلة وليلة ، ومن

أمثلتها : Goldener Spiegel ، Wintermärchen ، Hann und Gulpenheh . وتذكّرنا تراجيديا هاينريش هاينه «المنصور» باسبانيا الاسلامية ، أي بذلك العصر الذي تم خلاله في بلاطات الخلفاء في قرطبه وغرناطه واشبيلية أروع تكافل ثقافي بين الشرق والغرب .

الانتقال الى الواقعية

لقد كان إرنست تيودور أماديوس هوفمان E. T. A. Hoffmannمؤلف القصص الخرافية السيرابيوني العظيم – يقف فعلاً على العتبة الفاصلة بين الرومانتيكية المتأخرة والواقعية . كانت حياة هوفمان وأعماله متسمة بطابع تلك الفلسفة الثنائية بين ما هو واقعي واضح وما هو مبهم غامض . وقد أشاع هذا «الواقعي الخيالي» الذي كان يؤيد الوحدة بين الفن والحياة ، تلك الثنائية في فنه وحياته على حد سواء . وهكذا فقد كان يكتب هذا الانسان العنيد الذي كان يعمل مستشاراً لمحكمة الاستئناف البروسية الملكية قصصه الخرافية الغريبة أثناء فترة عمله الرسمية ، بدلاً من أن يملأ الملفات بالفتاوى القانونية ، تلك القصص التي يذكّرنا سحرها بأجواء الف ليلة وليلة . وقد كان يتقن على نحو لم يضاهيه فيه أحد تصوير الجوانب المظلمة للكيان الانساني وهبوط المعجزات على الحياة الواقعية وتحويل العالم الطبيعي الى عالم ما وراء الطبيعة – على نحو ما فعل على سبيل المثال عند تحويله أرشيڤاريوس لندهورست A. Lindhorst الى صقر طائر في نوبة الرقابة الليلية العسكرية الرابعة في قصته الخرافية «القدر الذهبي» Goldener Topf . وكذلك في قصته الخرافية «إلكسير الشيطان» وفي «إخوة سيرابيون» Serapionsbrüder أثبت هوفمان أنه تلميذ نجيب شهرزاد التي تواشجت في حكاياتها الليلية أيضاً أحداث مليئة بالأشباح ومثيرة للعجب ، واقعية وخيالية . وقد قابل هذه الثنائية في مستويات الأحداث عند هوفمان أيضاً إزدواج لمسارح الأحداث ؛ وهكذا فقد دارت أحداث قصصه في أتلانتس وفي دريسدن ، في برلين وفي جنّستان في نفس الوقت .

وعلى نحو مشابه لشارلز ديكنز Charles Dickens استمر هوفمان في تطوير العناصر الواقعية للرومانتيكية المتأخرة ، ومهد بذلك للواقعيين الناقدين في القرن التاسع عشر الطريق الى عصر جديد من تاريخ الأدب كان بمثابة الخاتمة لحركة الرومانسية .

بفضل الحركة الرومانسية أصبحت حكايات شهرزاد مشهورة في أوروبا بين عشية وضحاها : السندباد البحار ، علي بابا والأربعون حرامي ، مصباح علاء الدين المسحور ، قصص هارون الرشيد وأبي الحسن ، ابن التاجر من عُمان ، كل هذه القصص وغيرها الكثير داوم على اختطاف أجيال من الاوروبيين مراراً وتكراراً الى مملكة السحر للخيال الشرقي . وفي حين أن الف ليلة وليلة إعتبرت من وجهة نظر الأوروبيين على أنها التحفة الفنية الرائعة لأدب القصة العربية على الاطلاق ، فان هذا العمل الأدبي لم يحظى في العالم العربي نفسه باهتمام يذكر ردحاً من الدهر . فقد كان المؤرخون والأدباء العرب يعتبرون حكايات شهرزاد من أدب التسلية بالنسبة للدهماء من الناس . ولم يشرع الأدباء في العالم العربي أيضاً ينظرون الى هذه الملحمة الشعبية العظيمة بعين الاعتبار إلا بفضل الاهتمام غير العادي الذي حظيت به في أوروبا . وفي لحظة كان فيها الأدب العربي وقتئذ واقعاً تحت تأثير أوروبا يبحث لنفسه عن صور تعبيرية جديدة ، وإنهارت فيها أسطورة الأدب العربي «الكلاسيكي الراقي» أمام مقاومة جيل فتيء مكافح من «الشعراء الأحرار» بدأ المرء في العالم العربي يرجع الى تراثه الثقافي الذاتي ويتبصر في تقاليده الشعرية الخاصة به ، التي تم تناقلها منذ زمن هارون الرشيد محفوظة في الذاكرة – أي محفوظة في القصص الخرافية والحكايات التي ترويها الشعوب الشرقية . وفي غضون هذه العملية من التأمل في الماضي وجد أيضاً كتاب شهرزاد الذي لا حدود لعطائه الفني مكانة اللائق به كجزء من الأدب العربي ومدخل الى أروقة العلم والى معبر التراث الثقافي .

لقد فتن الشعر والخيال العربي شعراء الغرب واستهواهم ما ينوف عن القرنين من الزمان .

لقد كان هذا الشعر والخيال ملاذاً لمجتمع تسيطر عليه العقلانية سيطرة كاملة .

وبما أن أوروبا نفسها قد اندفعت الآن الى حدود التطور الاقتصادي التقني – وخلا أيضاً «العالم السليم» للشرق منذ

زمن من سحره بسبب وسائل الاعلام وتطور العلم وبركات السياحة – فاننا ننقب الآن عن «فانتازيا» جديدة ، عن «قصص لانهائية» على أدباء الرومانتيكية الألمان كما فعل هوجو فون فوفمنزتال Hugo von Hofmannsthal في مقدمته للنسخة الكاملة من الف ليلة وليلة التي قام بترجمتها إنو ليتمان . ونورد في المقال التالي خلاصة لتلك المقدمة .

* * *

هوجو فون هوفمنزتال

كان هذا الكتاب في حوزة أيدينا لما كنا صبية ، وعندما بلغنا العشرين واعتقدنا أننا قد شببنا عن الطوق وانتأينا عن طور الطفولة تناولناه في يدنا مرةً أخرى ، وعاد يأسر خيالنا من جديد – لَشَدَّ ما سَبانا ! في ضَباء قلبنا وفي عُزلة روحنا ألفينا أنفسنا في مدينة كبيرة جداً مفعمة بالأسرار مُنذِرة بالمخاطر مليئة بالمغريات – مثل بغداد والبصرة . كانت المغريات والتهديدات تمتزج على نحو غريب ؛ كنا نحس بالرهبة في القلب وباللهفة ، كنا نرتاع من الوحشة في أعماقنا ومن الضياع ، ومع ذلك فقد كانت تدفعنا جسارة ولهفةٌ قُدُماً في طريقٍ مليءٍ بالمتاهات ، دائماً بين وجوه ـ بين احتمالات وثروات وروائح عبقة وسَحَنات شبه ملثّمة وأبواب نصف مفتوحة ونظرات فوّارة شريرة في السوق الهائلة التي تحيط بنا : كيف كنا نتقمص شخصية هذا الأمير الذي ضلَّ سبيلَه بعيداً عن وطنه ، أو ذلك الابن لأحد التجار الذي مات أبوه والذي استسلم لمغريات الحياة ، كيف كنا نتخيل أننا نشابهم !

ها نحن الآن أضحينا رجالاً ، وهذا الكتاب يطالعنا للمرة الثالثة وآن لنا الآن أن نمتلكه حقيقة . ما واجَهنا سابقاً كان معالجةً وترديداً لحكايات من الذاكرة ؛ ومن ذا الذي يستطع أن يُعالج وحدةً شعرية متكاملة دون أن يقوض أخَصَّ ما تمتلكه من رونق وأعمق ما تحتويه من قوة ؟ إنها ليست مجرد مغامرات وأحداث ، بل إنها عالمٌ شِعريّ – كيف يكون حالنا لو أننا لم نعرف هوميروس Homer إلا عن طريق الاعادة لقصص مغامراته من الذاكرة ؟

هنا يتعلق الأمر بقصيدة إشترك في نظمها بلا ريب أكثر من واحد ؛ بيد أنها تبدو كما لو كانت قد نبعت من نفس واحدة ، إنها وحدة متكاملة ، إنها عالم من كافة الوجوه . ويا لَهُ من عالَم . قد يبدو هوميروس في بعض الحالات بالقياس الى ذلك عديم اللون وغير ساذج . هنا يوجد تعدّد ألوانٍ وبُعْدُ غَوْرٍ ، فيضُ خيالٍ وحكمة كونية قاطعة ؛ هنا توجد وقائعُ لا نهاية لها وأحلامٌ ، أقوالٌ حكيمة ، أفاكيهُ ، تجاوزاتٌ لحشمة ، أسرار ؛ هنا تتوشَّح أبسل صور الروحانية مع أوفى مظاهر الشهوانية في وحدة واحدة . إنه ليس بالشعور في أعماقنا الذي لا ينبغي لـــه أن يتيقظ ؛ كل ما في أعماقنا يدُبُّ فيه دبيبُ الحياةِ ويُستَدْعى للاستماع اليه .

إنها قصص خرافية تلو قصص خرافية ، وهي تذهب الى حد السماجة ، الى حد السخف ؛ انها مغامرات وأفاكية أو أحاديث غريبة شعبية ، وهي تصل الى حد الغرابة ، الى حد الخسة . غير أنه في جو هذه الأمور كلها لا تكون السماجة شوهاء ولا الفاحشة خسيسة ولا يكون الكل إلا رائعاً : شهوةٌ ساميةٌ كاملةٌ تجمع الكلَّ . إنها في هذه القصيدة مثلما الضوء في صور رمبراندت ، مثلما اللون على لوحات تيزيان Tizian . نحن نتحرك من أسمى عالمٍ الى أحطّ عالم ، من الخليفة الى الحلاّق ، من الصياد الرقيق الحال الى السيد الثري المشتغل بالتجارة – إنها إنسانية تلك التي تحيط بنا ، ترفعنا وتحملنا بموجةٍ عريضة رقيقة ؛ نحن بين أشباح ، بين سحرة وعفاريت ونحس مرة أخرى بأننا بين أهلينا . وكلما أطلنا القراءة ، كلما استشلّمنا بمُتعةٍ الى هذا العالم ، نتوه في وسط أكثر الشعر سذاجةً وإبهاماً ، الذي يُفضي بنا الى النسيج الخفيّ للغة – إن هذه اللغة لم تُصقَّل من أجل التجريدية ؟ كلماتُها الانفعالية وكلماتُها المادّية كلماتٌ أولية ، مُصاغة ، حياة أبوية شمّاء ، عملٌ وممارسة بدوية محض ، حالات خالصة شعورية جبارة حِسّية وساذجة ، موصوفة بلا مبالاة وبقوة . نحن هنا ناءون عن مثل هذا العالم بما يحيط به من أوضاع ، وبغداد والبصرة ليستا مُقام خِيام الآباء . لا يُقَدّم هنا عالَمٌ أرفعُ مستوىً ، إن الأمر لا يعدو أن يكون شبيهاً بالتنفس خلال المسام ، بيد أننا نتنفس خلال مسام هذه اللغة الشاعرية الساذجة نسيم عالمٍ قُدسيٍّ من قديم الأزل ، تسبح في أجوائه الملائكةُ والشياطين ، وتكون فيه حيواناتُ الغابة والصحراء مُهابةً مثل الآباء الشيوخ والملوك . وهكذا لا يكون نادراً أن يغدو التعميم والتفصيل ، بل والشيمة نافذة نظن أننا نُطِلُّ من خلالها على عالم أجدادٍ مُنير بغموض ، أجل على أسرار أعظم خطورة .

في الوقت ذاته ينتسج الكل بروحانية شعرية نتفانى بها بأشد الشغف منذ أن نبدأ الادراك الحسي الى أن نصل الى الفهم الكامل . شعورٌ داخليٌّ بالله ووجودٌ له يَغمُرُ كلَّ هذه الأشياء الحِسِّيَّة ويجلّ عن الوصف . وفوق هـذا المعج من الانسانية والحيوانية والشيطانية يمتد دوماً قبو السماء الشمسي الساطع أو تتراءى أطراف السماء المقدسة المرصعة بالنجوم . وكنسيم قوي زكي عليل تهبُّ خلال كل شيء المشاعر الطاهرة البسيطة الأبدية والحفاوة والتقوى والوفاء في الحب .

ولكي نطالع صفحةً من ألف صفحة ، ها كم لمحة من قصة علي شار والزمرّد الوفية ، وهي لمحة لا أود أن أستعيض عنها بأي نص بديع في أعظم كتبنا وقاراً . ومضمون القصة يكاد يكون لا شيء . المُحِب يود أن يُخلص محبوبته التي اختلسها منه روح عجوزة شريرة . وقد استكشف الحبيب البيت المأسورة فيه حبيبته ، ويتواجد عند منتصف الليل تحت الشباك ، وقد اتفقا على إشارة معينة ما كان عليه إلا أن يعطيها ، غير أنه كان عليه أن ينتظر لمهلة أخرى قصيرة . وهنا يغشيه نوم عميق في غير وقته المناسب ولا يمكن مقاومته ، كأنما قد باغته القضاء والقدر من الظلام مشلاً حركته . «وهنالك غَلَبَهُ النعاسُ» ، كما يقول النص «وراح في سبات عميق – عجيب هو ، هو الذي ما كانت تغمض له عين أبداً» . إنني لست أدري أيّ مقطع من هوميروس أو دانته أودّ أن أضعها للمقارنة بجانب هذه الأسطر : هكذا من اللاشيء الى مغامرة مختلطة الأحداث تتجلى رحمة الله مثل القمر عندما يبزغ فوق حافة السماء ! ولكن ما عسانا أن نقول عن أقوال الحكمة على ألسنة الطيور والحيوانات الأخرى ، وعن الاجابات العميقة المغزى للعذارى الساحرات وعن الأقوال المأثورة والحقائق التي تمس شغاف القلب ، التي كان يصبها آباء على فراش الموت وملوكُ حكماءُ مُسِنّون في آذان الشباب ، وعن الحوار الذي لا ينضب معينُه الذي كان العاشقون ينحّون به عن أنفسهم سعادتَهم وعبء هيامهم على حد سواء ، يرفعونه عن كاهلهم ، يعيدونه الى الوجود . ومثلما كانوا يظهرون سعادتهم بأن يعبرون عنها بأقوال الشعراء أو بكلمات الكتب المقدسة ، كان الصبي يرفع عن نفسه وَجَلَه والشحاذ عَوَزه ، والظمآن عَطَشه . ومثلما تكون الكلمات الطاهرة الورعة للشعراء مترددة على كل لسان ، مثل الهواء الذي يكون لكل فرد نصيب فيه ، تكون الرذيلة منزوعة من كل الأشياء فوق آلاف من المصائر المتشابكة تحلق إبديتها في نقاء وحرية مُفْصَحٌ عنها بكلماتٍ خالدة الجمال باقية على الدهر .

هذه المغامرات التي يمثل كل مضمونها تطلعات دنيوية الى أقصى حد ومعاناةً مبهمةً ومتعةً مطلقة ، لا تظهر هناك إلا من أجل القصائد السامية التي ترفرف فوقها – ولكن ما قيمة هذه القصائد وما قيمتها بالنسبة لنا لو أنها لم تكن نابعة من عالم زاخر بالحياة ؟

خالدٌ على مر الزمن هذا العالم الزاخر بالحياة والمُفعَم بمسرةٍ لانهائية ، بمسرةٍ جياشة طفولية لا تمحوها الأيام ، تشبِّكُ الكلَّ بلا نظام وتصل الكل بعضه الى بعض : الخليفة الى الصياد رقيق الحال ، الشيطان الى المرأة الحدباء ، سيدةَ الحُسن والجمال الى المتسوّل الأحدب ، جسداً الى جسد ، وروحاً الى روح .

رحيل هاينريش بلْ ، حامل جائزة نوبل للآداب

وفـاة مـرجــــع

هاينريش بلْ : شاعر ، واعظ ، مادّي ، وحالم

في السادس عشر من يوليو (تموز) ١٩٨٥ توفي الكاتب الألماني **هاينريش بل** Heinrich Böll ، حامل جائزة نوبل للآداب ، وكان ذلك في بيت ابنه في بورنهايم Bornheim قرب بون Bonn وبعد عملية جراحية في الأوعية الدموية .
وهاينريش بل ، الذي نُشرت آخر رواية له (**نساء أُمام منظر نهري** Frauen vor Flußlandschaft) بعد وفاته بقليل ، بدأ الكتابة سنة ١٩٤٩ بعد أن كان أسير حرب لدى الامريكيين . وأهم ما طبع أعماله الأدبية تلك التجربة التي مر بها إبان الحرب العالمية الثانية وموقفه النقدي من الأوضاع التي سادت في ألمانيا بعد الحرب . وقد ظل هاينريش بل لثلاثة عقود مواكباً لتاريخ ما بعد الحرب في ألمانيا الغربية نقداً وإبداعاً واستمراريةً لم يُعرَف لهما نظير لدى كاتب معاصر غيره . كذلك فان التزامه العميق بالقضايا الفكرية والاخلاقية جعل منه ممثلاً فكرياً وروحياً للشعب ، الذي كان «بلْ» يكتب بلغته ، كما جعل منه ما يشبه «ضمير الأمة» .
هذا الدور الكبير الذي لعبه أكسبه احتراماً وهيبة عظيمين ، وبالأخص في الخارج . وفي الوقت نفسه ألّب عليه الأعداء في وطنه بالذات . والجدير بالذكر أن هاينريش بلْ هو من المعاصرين الالمان القلائل – الى جانب زميله وصديقه غونتر غراس Günter Grass الذين ترجمت بعضُ أعمالِهم الى العربية .
يقوّم في المقال التالي الناقد الالماني فريتس رادتس Fritz Raddatz حياة هاينريش بل وأعماله الأدبية .
ونود قبل ذلك أن نوافي القراء ببعض أقوال «بل» الهامة التي وردت في المقابلة الطويلة التي أجراها معه **رنـي فينتزن** René Wintzen والتي نشرت في كتاب صدر عام ١٩٧٨ عن دار «**العتبـة**» (الساي) في باريس تحت عنوان : **الذاكرة الالمانية** .

آلام ألمانيا بعد الحرب

صحيح أن الالمان هم الذين بدأوا الحرب وان هتلر هو أول من بدأ بقصف المدن . لقد رأيت مدينة «اميان» Amiens الواقعة في شمال فرنسا مدمرة تماما . ولكن ما لا يريد أن يفهمه الكثيرون ، هو أن الناس – فاشيون أو غير فاشيين – قد تألموا كثيرا في مثل تلك الظروف . إنهم عاشوا – رغم الارهاب النازي البشع – الفترة الأشد قسوة ، تلك التي امتدت من يوليو (تموز) ١٩٤٤ الى نهاية الحرب ، وتمكنوا في نفس الوقت من الرقص والشرب ومن مضاجعة النساء والاستمتاع بأفراح متواضعة محدودة .

ما هو الالتـزام ؟

إن كل كاتب عصامي بالطبع ، وحتى إن كان إنساناً مثقفاً ثقافة عاليـة ، فهو عصامي بالضرورة . . ان الجدل الدائم حول الشكل والمضمون وحول الالتزام واللاالتزام يدعو للقلق الشديد . والأهم هو التعبير بصدق عن وسط أو عن مشكلة أو عن عالم معين دون الالتزام بالشكلانية البورجوازية من حيث الشكل . وبالمقابل يجب التأكيد على أنه لا يمكن أن يعطي المحتوي وحده قيمة للعمل الأدبي .

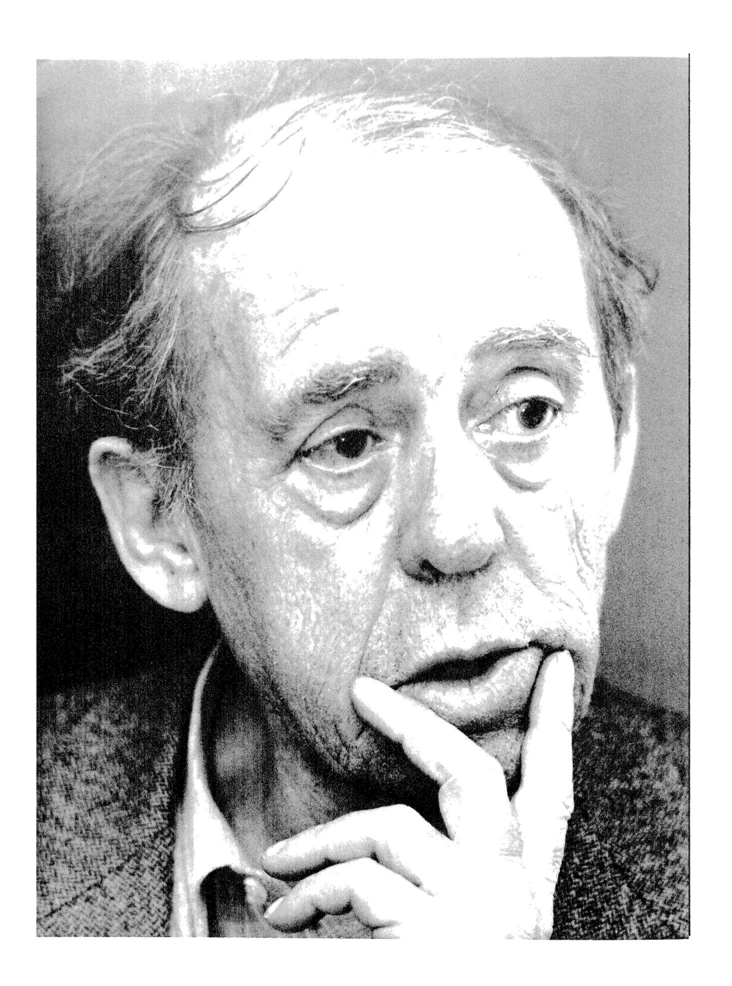
الثقافة ليست وحدها المحددة بالنسبة للكـاتب

إن كل كاتب عصامي بالضرورة . وأريد أن أؤكد على ذلك لأن هناك أساتذة مثقفون جداً وحاملو شهادات عالية ، إنما ليسوا قادرين على الكتابة ، كما يتعسر عليهم أحياناً توضيح أفكارهم للغير . ومن المؤكد بأن الشهادات الجامعية التي حصلوا عليها تعيقهم كلياً عن إداء ذلك . ويشهد تاريخ الابداع دوماً بأن الثقافة ليست وحدها المحددة بالنسبة للكاتب .

لقد كان **بلْ** Böll ما كره أن يكون : ضمير الأمة . وتلك «عبارة قتّالة» ، كما كان يسمّيها . وكان ، في الوقت ذاته ، يقول عن نفسه : «إخال أنني لم أُعرف بعد ، فأنا أقدّر دائماً أقلّ من قدري ، وأحياناً فوق ما أستحق . »
كيف يمكن لهذه الأمور أن تأتلف ؟ وبكلام آخر : هل ينطوي هذا التناقض على سر «هاينريش بلْ» ؟ فقد كان للرجل سر تنبع منه سلطته . وفي غمرة صدمتنا الحاضرة تجاه وفاته المبكرة ، عن سبعة وستين عاماً ، يمكننا أن نؤكد : إن سرّه كان الحب .

كان هاينريش بلْ Heinrich Böll يحب الناس . سواء كان ذلك في منمنماته النثرية الفريدة ، مثل («ليس في عيد الميلاد فقط» Nicht nur zur Weihnachtszeit) أو في شخوص رواياته الكبيرة : «آدم» (في «أين كنت يا آدم ؟» ,Wo warst Du Adam ?) و «ليني (في «صورة جماعية مع سيدة» -Gruppen bild mit Dame) و «شنر» المهرج في («نظـرات مهرّج Ansichten eines Clowns) و «هيدڤيك» (في «خبز السنوات الأولى» (Das Brot der frühen Jahre) . فكل ما يكتبه «بلْ» يصدر عن طبع رقيق . حتى عندما يكره . إذ أن «بلْ» ، مثل كل مسيحي حقيقي ، كان يعرف أيضاً أن يكره ، حتى عندما تقدّم به العمر وأصبح أكثر ليناً . وقد كان يوجّه تلك «الكراهية» الى الذين حادوا عن الصواب ، ولكنه لم يُظهر أبداً تكبُّراً أو شماتةً نحوهم ، بل شفقة بالأحرى . إنه الموقف نفسه الذي عرفناه عند ذلك الماديّ العظيم الآخر في الأدب الألماني ، ذلك الملوّح بيـده برجاء ، أعني **بـرتولد بـرشت** Bertolt Brecht .

هذا التشبيه يبـدو وكأنـه ينطوي على كثير من المغامرة والتعسف ، لكن «بلْ» كان يقبله بأقصى الجدية . فقد كتب في احدى رسائله الرائعة الأخيرة :
«أعترف أنني لم أطّلع على معظم ما قيل فيّ أو ما كتب وصوّر عني – وذلك ، ببساطة ، لأني لا أريد أن أنشغل كثيراً بنفسي ، ولا أريد أن أقع كليا في المرض الذي أصاب عصرنا ، أعني الهوس **بالأنا** . فهذا القدر من الجاه والشهرة قد يسبب بسهولة



مسّاً من الجنون . . إنك على حق فيما يتعلق بعبارة «ماديّ» ، غير أنه علينا أن نحدد مفهومنا للمادة : فاللغة مادية . كذلك فالكائن الذي نسميه الله أصبح مادياً . أي بشراً بالتحديد (هذا في مفهوم «بلْ» المسيحي) . كما أن ما يتبادله العاشقون ماديّ أيضاً . لا شك أن هناك أوجه شبه ببرشت ، أكثر مما يعتقد بعض المدمنين على برشت ومما يستطيعون ادراكه . غير أني لست بورجوازياً ، ولا من أصل بورجوازي ، بل أنا مزيج من البروليتاريا والبوهيمية والبورجوازية الصغيرة .

«إني تعب ، يا عزيزي ، مريض ومنهوك . لا أقوم بأعمالي العادية إلا بمشقّة . النهوض صباحاً يبدو لي صعباً ، ومع ذلك أنهض : إني حقّاً أقف على رجليّ . فلا تنس أني مُلقّح بالميتافيزيقا – لا أدري متى وبواسطة مَن . كان يمكن لبرشت أن يتفهم هذا .

فيموسكو قال لي أحد الأذكياء الروس الكثيرين (وهو ما يزال حياً) : – كان برشت آخر الكاثوليك ، وأنت قد تكون أوّل الكتّاب البروليتاريين – . وفي هذا الكلام بعض الحقيقة . أما في بلدنا ، فان المجالات الاخلاقية والجمالية والسياسية لما تزل منفصلة جداً بعضها عن بعض .»

واليوم ، بعد وفاته ، نقرأ تلك الرسالة وكأنما هي سيرة ذاتية ووصيّة في آن معاً . فهي تنظم كل العناصر التي تكوّنت منها أعمال كاتب عظيم : تديّن دنيوي غريب ، ميتافيزيقا علمانية كلياً ، قرب شديد من الشعب ، واهتمام مطّرد بالقضايا العامة التي لم يكن يتطفل عليها ، بل كان مُلزماً بها ، ثم الصرامة النابعة من وجدان حيّ .

من هنا قوة الاشعاع في أدبه ، فهو أدب يحتوي على شيء يتولّد من **أسى الروح** ، كما سمّاه مرة ، وتنطوي عليه أعمال مؤلفين قليلين : تلك الجذرية (الراديكالية) النزيهة التي عناها ماركس الشاب عندما ذكّرنا أن مفهوم **الجذريّ** إنما هو مشتق من الجذر . ولكن جذر الانسان هو الانسان نفسه ، فما كتبه «هاينريش بلْ» لم يكن قط مجرد أدب .

في كُتب «بلْ» يجب أن يعشش شيء ينفع الناس . لقد جعل لهم اللغة قابلة للسكنى . فالتطابق النادر بين هويّتي المؤلف وأعماله أمر يتخطّى التجربة اللسانية الذوقية . إذ أن أعمال «بلْ» حافظت دوماً على التوازن بين ما يؤمّله القارىء من تخيّل منظاريّ وما يقدّمه له المبدع .

لقد حدّد «بلْ» نفسُهُ هذا اللاتفنن في فنه عبر جملته الشهيرة المدهشة : «ماذا ؟ أنا وليس «غراس» !» وهي الجملة التي قالها في مرفأ يوناني صغير حين فاجأته أنباء حصوله على جائزة نوبل . فالذين يُعَدّون فنانين مغلقين كباراً في أدب ما بعد الحرب العالمية الثانية هم بالاحرى پاول سيلان Paul Celan أو أرنو شميت Arno Schmidt أو أوڤه جونسون Uwe Johnson . أما «بلْ» فقد اعتُرِفَ له بدور الاخباري الناقد الذي يؤرخ وقائع الجمهورية الاتّحادية ، وبدور المراسل من بلد الجوع وإعادة البناء ، بلد المعجزة الاقتصادية وإعادة التسلّح ، وأخيراً بلد قاعدة الپرشنغ Persching التي تظاهر ضدّها في موتلانغن Mutlangen هذا الحامل لجائزة نوبل . لقد كان «هاينريش بلْ» **بلزاك** الجمهورية الالمانية الثانية . فكما أن هذا رَسَمَ مجتمع الجشع في مملكة البورجوازية ، فان «بلْ» أخرج لنا مشهد الرقصة الهائلة لعمالقة التكالب على الإثراء بعد الحرب الثانية .

هذا هو المفهوم الأصلح لفن «هاينريش بلْ» : إنه مُخرج . إنه لا يخترع ، بل يجد . إن مادته مركّبة مما هو موجود أو متذكَّر . رواياته وأقاصيصه تحيا من حافز معيّن . وذلك ليس بحثاً عن الزمن الضائع ، بل عن الزمن المَخون . الزمن : إنه ما فعلنا . فهو ليس مقولة نفسانية ، بل تاريخية . و«بلْ» يرى أن بشريةً بلا ذكرى هي كابوس ، لفقدانها الحسّ التاريخي . وهكذا ، عندما قيل له في مقابلة : «أنت لا تفهم الكتابة سيرة ذاتية بقدر ما تفهمها سيرة ، أي مشاركة في التاريخ المعاصر» ، أجاب بكلمة واحدة : «نعم» .

«هاينريش بلْ» ليس كاتباً سيكولوجياً ، ورغم روعة نثره ، فهو ليس من أصحاب الرهافة الأسلوبية . إنه متظاهر ، فهو ، عبر أسئلته ، يعرض ضروب الاعوجاج والظلمة ، كما يعرض شرارات الأمل الضئيلة ، قوّة كتبِهِ ليست متأصلة في سبره للبنى الفردية أو في خلقه القدَرَ الفرديّ العميق الأغوار ، بل في البرهان المتكرر على أن المجتمع هو الذي يدفع الفرد الى حافة الهاوية ويرى أن الفرد هو الوجود الآثم بعينه . «الفرد» عبارة عن شتيمة في الاستعمال اللغوي الالماني . بطلته ليني Leni ليست مدام بوڤاري Madame Bovary ، إنها بالأحرى «الأم الشجاعة Mutter Courage المعاصرة : ليست شخصاً يستحق شفقتنا ، وإنما هي شخصية تعرض علينا الخراب الذي أنزله بها الزمن .

وهكذا نراه ، حتى في مقال عن توما الاكويني ، يستعمل هذه التقنية الدراسية في التظاهر التالي : «كم أود لو أسأل واحداً مثل توما الاكويني : عن القنابل الذرية ، عن التسلح وعن

تخفيضه أو زيادته ، عن مسيحية الأحزاب المسيحية ، عن المخدرات والانتحار وضغط الانتاج والتلفزيون والعائلة وتحديد النسل ، وعن الارهاب والعصيان والتمرد والثورة . فهو ، على أي حال ، قد وافق على السرقة لسدّ الجوع : – في حال الفقر المدقع تصبح الأشياء جميعها ملكاً عاماً . لذلك يحق للذي يعاني فقراً من هذا النوع أن يأخذ من مال الآخرين لمعيشته ، اذا لم يجد مَن يتبرع له بذلك . وللسبب نفسه ، فانه يحق أن يُؤخذ شيءٌ من مال الآخرين ويُعطى صدقة ، وذلك يفترض بالطبع إنعدام طريقة أخرى لمساعدة المعوز . أما واذا أمكن أن يتمّ الأمر دون خطر ، فالأفضل أن يُحصل على موافقة الملك أولاً ثم يُنفق على المعوز – .

«والسؤال هو : هل الفرد وحده هو المضطرّ الى السرقة لسدّ الجوع ؟ أو ليس هناك شعوب بكاملها محتاجة الى السرقة بدافع الجوع ؟ ومَن له ، «دون خطر» ، أن يسأل «سوموزا Somoza أو الشركات المتعددة الجنسية ، ولو صدفةً ؟ الأرجح أن الاجابات عن أسئلتي متضمنة باختصار في أعماله الكاملة ، التي يجب أن نتقصّاها فكرياً . إن العقل الذى بنى عليه والذي اشترطـه الى حـدّ مفرط ، العقل المتـوسطي الطبع ، المتحدر من العقل (Ratio) الروماني . ولا ريب أن هناك «عقولاً» أو – أكثر من هذا الذي ارتضيناه عقلاً لنا .»

إن تسميتنا هذا الكلام مقالاً ليست صحيحة تماماً . فهذا النص ينطوي أيضاً على أقصوصة . وهـذا هو سرٌ ثـانٍ في فن «هاينريش بلْ» : إن تصوره للانسان يستتبع نتائج أدبية مباشرة كلياً .

. . . ماذا يقول «بلْ» ؟ . . .» هذا ما كان يسأله ، أو يصرح بلْ به ، أو يقوله أو يكتبه المساجون والمبعدون والمنفيون والمظلومون الذين كان يساعدهم في أغلب الأحيان . إنسانيته القوية ، وعناده أيضاً حافظا لديه على هذا الشيء البراق المنافق الذي نسميه «يوطوبيا» . «يجب ألا نخاف الذهاب بعيداً . .» قالها مرة . «ولن أدع أحداً يقنعني بترك الأمل في هذه اليوطوبيا» أي يوطوبيا ؟ «مجتمع لا نفعيّة فيه ولا طبقات .» حالم ؟ أيضاً ولا شك ! لكن ، من لا يحلم يُجَنّ . ومجتمع لا يعرف الحلم إلا كلمة مبوبة في أبواب الدعاية هو مجتمع مهدد بالجنون . و«هاينريش بلْ» لم يذكر نفسه فقط بهذا الأمر ، بل ذكّرنا نحن أيضاً . ونجاحه العالمي كان علامة توقنا جميعاً الى الأمل . لكنه الآن أمل تشوبه الظلال .

الكتّاب والمثقفون الألمان يحملون تابوت هاينريش بلْ وهم : ليو كوبيليف (الأول على اليسار) ، جونتر جراس (الثاني على اليسار) ، جونتر ڤالراف (الثاني على اليمين) وفي المؤخرة أبناء هاينريش بلْ .



هاينريش بـلْ

في الأُدب والأَخلاق والسياسة

الأمر الذي لم أفهمه ، فلم يستطع بالطبع أن يؤذيني ، هو محاولة الفصل بين مَن يسمّى بالقاصّ وبين الآخر – الذي يكتب المقالات والنقد أحياناً ، ويقف خطيباً أحيانا – وذلك بالرغم من كون المقالات والنقد والخطب هي أدب أيضاً .

وعندما نتكلم عن المتاعب والأخطار ، وأعود الى ذاتي ، أجد أن القاصّ أخطر وأكثر متاعب من الآخر . لذا لا أفهم هذا الفصل بينهما ، وأترك مهمة ذلك الى متخصصي الآداب الألمانية . أني أجد أقصوصة تسيل بسهولة على طريقة موسيقى موزارت تقريباً – كما هي الكثير من أقاصيص همنغواي – وتلعب بالعدم أو اللاشيء ، تسوقه أمامها وتجعله يثب ويقفز ، أخطر بالنسبة اليّ من كثير من المقالات النقدية السياسية .

لا يمكنني أن أستوفي هنا كل الأخطار الناتجة عن هذا النوع من سوء الفهم . يمكنني أن ألمّح اليها فقط ، باعثاً على التفكير ومنبّهاً على الخطأ ، حتى عند قراءة الكلاسيكيين . فسوء الفهم هذا سحيق القِدم ، ضارب في الأعماق ، وقليلة جداً هي الحالات التي كان فيها الناس كباراً وأسياداً الى حدّ أهّلهم أن يثابروا بحيوية على أيديولوجيتهم ونظرتهم الى الحياة ، وأن يقفزوا ، رغم ذلك ، فوق الحدود ، فيعترفوا بالفن والأدب اللذين لا يوافقان أيديولوجيتهم . وهنا يخطر ببالي ثلاثة : والتر بنيامين Walter Benjamin وروزا لوكسمبورج Rosa Luxemburg ، والثالث – وليسامحني الله إن ذكرت اسمه – هو لينين ، الذي وضع بعد الثورة لائحة بالكتّاب الروس الذين يجب ألا تُمس تماثيلهم ، وقد كان «الرجعيّ» دوستويفسكي واحداً منهم . وعندما نفكر كيف نعامل هاينريش هاينه Heinrich Heine أو أوسّيستكي Carl von Ossietzky في بلادنا ، فلربما أمكن أن نأخذ لينين مثالاً يحتذى .

في تقديم النتاج الذي نسمّيه النتاج الفني ، هناك دور يلعبه شيء غير قابل للتبرير أو الموضوعية ، أعني به الذوق . إني لا أعرف منطقة أكثر منه وعورة . فكلّ منّا يعرف ، ولا شك ، أناساً قد تربطه بهم صداقة ، وقد يجد ذوقهم ، فيما يتعلق باللوحات الزيتية والأثاث والكتب ، فظيعاً ، ولكنه ، رغم ذلك يقدّر طباعهم ويحبّهم . والعكس صحيح أيضاً ، فقد نعرف إنساناً لا نشعر بأي عيب في ذوقه ، ولكننا نستفظع طبعه .

إن مَن كان ، مثلي ، يفضّل من برشت Bertolt Brecht شعره ، فعليه أن يعرف أن هذا الشعر هو أيضاً برشت بكامله . وغوتـــه Goethe ، هذا الكلاسيكي الذي لا خلاف فيه ، لست أدري ما يتصوره أولئك الذين قد ينصحون أولادهم بقراءته باعتباره شافياً من السقوط المعاصر . إن من ينصح بقـراءة «الأنسـاب المختـارة» Die Wahlverwandschaften و«آلام ڤرتر» Die Leiden des jungen Werther و«فاوست» Faust ، لا بد أن يكون مدركاً لما يفعل ، والا فانه لم يقرأ غوته قط . فالفوضى والفواجع والألم والقلق والخيانة الزوجية والانتحار ، جميعها تختبيء وراء هذا النثر الذي يحوز بسهولة مفرطة على الرضا والاعجاب .

ثم نأتي ، بالأخص ، الى «كلايست» Heinrich von Kleist الذي يُقرَأ ، والحمد لله ، في جميع المدارس والذي كان راديكالياً وكان أحياناً يعمل في دوائر الدولة . إن من يجعل أولاده يقرؤون «كولهاس» Michael Kohlhaas و«كيتشن» Das Käthchen von Heilbronn والـمسـرحيـة الفـكـاهيــة الرائـعــة «الـجرّة الـمحطمة» Der zerbrochene Krug لا يشجعهم كثيراً على الايمـــان بالسلطة . هؤلاء الكلاسيكيون خطرون . فكيف يكون القاصّ أقلّ مدعاة للحذر من كتّاب المقالات ؟

(. . .) فحذار إذن من القصاصين وحتى الكلاسيكيين منهم ! وهذه الدعوة الى الحذر موجهة الى جميع الأحزاب السياسية .

(. . .) فأنا ، على أي حال ، أرى أن «غراس» Günter Grass في «طبلة الصفيح» Die Blechtrommel أخطر منه في «يوميات حلزون» Tagebuch einer Schnecke . ولا يمكنني أن أتجنب الضحك عندما تتمادى البورجوازية في حب صاحبها «توماس مان» Thomas Mann محطِم البورجوازية .

إني أكرر : الخطر في الأبحاث والمقالات النقدية هو ما يكمن فيها من شعر ومن تعبير لغوي لا ينضوي تحت لغة الرتابة السياسية . ويخطىء من يكرّم كاتباً معتدلاً يرضى عن كل شيء . إذ أنه لم يعُد سوى مملّ ، ذلك الكاتب الذي تريدون تكريمه .

وهناك واحد آخر نسيته ، «جورج بوشنر» Georg Büchner الذي لا يكاد يرقى الشك إلى أنه إرهابي ، حتى أن البحث يجري عنه على هذا الأساس ، أتودون تكريمه ، وهو الذي يُلعب على جميع المسارح ويُقرأ في كل المدارس ؟

(مقتطفات من كلمة «هاينريش بل» عندما أصبح «مواطناً فخرياً» في مدينة كولونيا في ٢٩ نيسان/أبريل ١٩٨٣) .

* * *

قصيدة هاينريش بلْ الأخيرة

الى ساماي

نأتي من بعيد
يا طفلتي الحبيبة
وعلينا أن نذهب بعيداً
لا تخافي
كلهم حولك
كل من كان قبلك
أمّك وأبوك
وكل من كان قبلهما
من زمن بعيد بعيد
كلهم حولك
لا تخافي
نأتي من بعيد
علينا أن نذهب بعيداً

جدّك
٨ مايو ١٩٨٥

Heinrich Bölls letztes Gedicht

Für Samay

Wir kommen weit her
liebes Kind
und müssen weit gehen
keine Angst
alle sind bei Dir
die vor Dir waren
Deine Mutter, Dein Vater
und alle, die vor ihnen waren
weit weit zurück
alle sind bei Dir
keine Angst
wir kommen weit her
und müssen weit gehen

Dein Großvater
8. Mai 1985

هاينريش بلْ وكاترينا بلوم

يعد فولكر شلوندورف من أهم المخرجين السينمائيين الشبان في ألمانيا الاتحادية وقد ذاع صيته كمخرج لروائع الأدب العالمي. (**طبلة الصفيح** – عن رواية جونتر جراس والتي قدمناها في «فكر و فن» عدد ٤١ ، و «البحث عن الزمن الضائع» لمارسيل بروست و «الحرب والسلام» لتولستوي و«الفتى تورلس» لروبرت موزيل .

هذا وقد قام شلوندورف باخراج رواية هاينريش بلْ «شرف كاترينا بلوم المفقود» في عام ١٩٧٥ ، وبعدها بعام واحد ألّف بلْ قصة ساخرة بعنوان «أنتيجونا اليوم» كتب على أساسها شلوندورف سيناريو الفيلم المسمى «ألمانيا في الخريف» ، ثم تعاون الاثنان عام ١٩٨٢ في كتابة سيناربو «الحرب والسلام» .

ويتذكر شلوندورف بلْ «كأب روحي للفيلم الألماني الجديد» الذي تابع تطوره عن كثب ابتداءً بأعمال المخرج جان – ماري شتراوب وحتى إنتاج مارجريت فون تروتا وفرنز هرتزوج . كما أنه شارك بفعالية كبيرة في إخراج فيلم «كاترينا بلوم» . وكان شلوندورف قد التقى بلْ في بيته في جبال الأيفل قبل وفاته بأسابيع قليلة ، ويحدثنا هنا عن هذا اللقاء الأخير وعن ذكرياته عن هاينريش بلْ .

شلوندورف :

بدا لي بلباسه الريفي والبيريه شبيهاً بأخيه الذي يحترف النجارة . إن وفاته بالنسبة لي – بالنسبة لنا جميعاً – هي كما لو كنا قد فقدنا أباً . فقد كان بلْ في الخمسينات ، في ذلك الزمن «بلا آباء» ، هو الوحيد الذي رفع صوت العقل ، والوحيد الذي سبح ضد تيار «الحرب الباردة» .

كان بلْ هو الوحيد الذي كنا نؤمن بصدقه ، فكلماته لم تكن مواعظ وإنما كانت مشوبة دائماً بروحه المرح .

أما أنا شخصياً فاكتشفته وأنا في الخامسة عشرة من عمري عندما قرأت رواياته الأولى . وبعدها ، أي بعد ١٩٦٨ (عام الانتفاضة الطلابية – المحرر) وعندما بدأ اتهام الحركة الطلابية بالاجرام ، نرى بلْ مرة أخرى يقف في صف الشباب وينادي بالتعقل ، سابحاً ضد التيار .

(من كتاباته بهذا الصدد المقال الذي أثار ضجة كبيرة «هل تريد أولريكه ماينهوف الرحمة أم أنها تريد أن تؤمن على حريتها – المحرر) .

تعرفت عليه شخصياً في تلك السنوات وبدأت صداقتنا أيام كتابته «شرف كاترينا بلوم الضائع» ، فأراني النص وقررنا في حينه أن نخرج الرواية للسينما . وأمضيت مع مرجريت فون تروتا[1] أياماً طويلة في بيته نكتب ثلاثتنا السيناريو ، كان بلْ Böll شعلة من الحيوية . كتب مناظر إضافية وأجزاء من الحوار خصيصاً للفيلم وأعاد رسم الشخصيات بدقة أكثر ، بل أعاد تأليف بعض الأجزاء من الرواية . وبعد أن كتبنا السيناريو ناقشناه مع بلْ ، لم نناقش كل منظر على حدة وإنما تكلمنا عن الشخصيات وركزنا على تطورها كأفراد .

وبرزت من خلال تلك النقاشات مناظر جديدة أعدنا معالجتها مرة أخرى وأضاف بلْ نصوصاً جديدة لها ، كان عملنا مركزا لا على إيجاد هيكل السيناريو أو تأليف الحوار وإنما كان الهدف منه إعادة وصف الشخصيات ، تحويلها من شخصيات أحادية البعد إلى شخصيات ذات أبعاد متعددة . واكتشفنا خلال هذا العمل المشترك أنه بالامكان رسم إنسان بأكمله بسطور قليلة .

مونيكا ماورر :

ما هو الفارق بين العمل الروائي وبين السيناريو ثم الفيلم ؟

شلوندورف :

هناك الكثير مما يعبر عنه العمل الروائي بطريقة مجسمة يصبح ثقيلاً عندما يتحول إلى صورة في الفيلم ، فالفيلم له لغته الخاصة

---

١) مارجريت فون تروتا من أنجح المخرجات الألمانيات ، اشتهرت بفيلميها «الزمن الثقيل كالرصاص» و «الجنون الساطع» ، وهي متزوجة من فولكر شلوندورف .

التي تتطلب صوراً لا توجد في النص المكتوب ، تكتسب قدرتها التعبيرية في الفيلم . يجب تجاهل النص الأدبي ، فمهمتنا ليست أن نعطي الكتاب حقه وإنما أن نعطي الواقع حقه .

مونيكا ماورر :

هناك وسائل مختلفة يُنقل بها العمل الأدبي في الفيلم بحيث يبرز من خلاله ، أو هل تظن أنه من الممكن إخراج عمل أدبي والتظاهر بأنه غير موجود كنص مكتوب ؟

شلوندورف :

لا يمكن تصور هذا الفيلم بدون رواية بلْ ، فإن ما ننتجه هو في نهاية الأمر عالم بلْ وليس الواقع المباشر . فكل الشخصيات هي شخصياته ، وهذا هو منبع قدرتها التعبيرية .

مونيكا ماورر :

هل تظن أن بلْ قد كتب الرواية وهو يأخذ في عين الاعتبار أنها ستتحول الى فيلم ؟

شلوندورف :

لا أعتقد ، أن العديد من المقومات في قصته كانت تنسب في الماضي الى التكنيك السينمائي مثل الاسترجاع والكولاج المركب من المقالات الصحفية والمحاضر . ورغم أننا كنا الثلاثة – بلْ ومارجريت وأنا – قد قررنا الالتزام بأسلوب مستقيم ومباشر في السرد ، حتى ان المتفرج يذهب في رحلة استكشاف مع كاترينا ويتحول معها من مراقب إلى متأثر ذاتياً وهي نفس التجربة التي مر بها بلْ والتي قد نمر بها جميعاً .

مونيكا ماورر :

ما هو العنصر الأساسي في فيلم كاترينا بلوم ؟

شلوندورف :

يكمن العنصر الأساسي في إبراز الأساليب التي تنتهجها الصحافة مع تصوير دور الجهاز البوليسي والكنيسة في مجتمعنا . إن ما أردنا التعبير عنه في منتصف السبعينات هو هستيريا الاتهام بالإرهاب ، تلك المطاردة المجنونة التي ماثلت مطاردة الساحرات في القرون الوسطى والتي أصبح بلْ نفسه إحدى ضحاياها .

لم يكن بلْ يحب الحديث عن معاناته في ذلك الوقت ، لعدم رغبته في الظهور بمظهر الضحية . لكنه قد قاسى حقيقة من هذه الأحداث التي تعطي صورة عن الجو السياسي في تلك السنوات .

مونيكا ماورر :

كيف عاش بلْ تلك الفترة وهل استطاع أن يتغلب على آثارها ؟

شلوندورف :

لم تكن من عادة بلْ أن يفرق بيت الحياة العامة والحياة الخاصة، بين الكاتب والانسان . فقد كان إخلاقياً إنسانياً أو إنسانيا أخلاقياً ، وعندما وضع هو نفسه في قفص الاتهام رأى في ذلك دليلاً على موقف الصحافة والساسة الذي يهزأ بكل القيم الانسانية ، وهو موقف كان دائماً موضع نقده . إن بلْ لم يكتسب شخصيته القديمة بعد تلك التجارب المريرة ، فبالرغم من مشاركته في كتابة فيلم «ألمانيا في الخريف» و «الحرب والسلام» ، إلا أنه كان على قدر ما من التحفظ والبعد الساخر . إن استعداد بلْ الدائم للمشاركة في الصراع كان نابعاً من موقفه الانساني وليس من موقع النشاط السياسي .

مونيكا ماورر :

هل كان بلْ مهتماً بالفيلم في حد ذاته كوسيلة للتعبير الفني ، أم أن مشاركته في العمل كانت مشاركة إنسانية وسياسية وأدبية ؟

شلوندورف :

يذهب أبطال بلْ وبالذات بطلاته الى السينما لمشاهدة الميلودراما المؤثرة التي تستحوذ على مشاعرهم حتى البكاء ، وبلْ نفسه كان يحب هذا النوع من الأفلام ، حتى أن الفيلم الذي أخرجه شتراوب عن قصته «البلياردو في التاسعة والنصف» كان في رأيه جافاً جداً . بعد مضي عشر سنوات على إنتاجه اعترف بلْ بأنه فيلم متميز من الناحية الفنية لكنه لم يؤثر فيه . مع مرور الزمن نمت علاقته بالفيلم واهتمامه به كأداة للتعبير الفني ومن الملاحظ أن رواياته اللاحقة تصلح كلها للسينما .

مونيكا ماورر :

هل هذا هو السبب في اهتمام المخرجين بأعمال بلْ ؟

مونيكا ماورر :
ما هو تأثير بلْ السياسي على الفيلم الألماني ؟

شلوندورف :
علمنا بلْ – نحن مخرجو الأفلام – أن نصف الشخصيات البشرية وليس فقط الأفكار والبرامج ، كما علمنا أن نصف الأشخاص في حياتهم اليومية العادية ونبرز بذلك البعد السياسي الذي يتضمنه وجودهم . وهذا بالضبط ما أراد إظهاره في روايته «كاترينا بلوم» و «صورة مجموعة مع امرأة» . كان بلْ يقول إن بلادنا قد خُرّبت مرتين ، المرة الأولى بالقنابل في الحرب العالمية والمرة الثانية بالاسمنت والأسفلت وبدلاً عن بلد ومجتمع إنساني أقاموا صحراء من الأسفلت حطمت العلاقات الانسانية .

مونيكا ماورر :
ان كاترينا وليني وشخصيات أخرى خلقها بلْ ، هنّ ثائرات ورافضات ولكن بلا إيديولوجية ؟

شلوندورف :
لم يكن بلْ من المؤمنين بالأيديولوجيات ، لا بالديانة الكاثوليكية ولا بالماركسية ، مثله مثل جيل بأكمله ممن عاصروا النازية وأرادوا الابتعاد عن الأيديولوجية . ولعل هذا ما جعل أعماله غير مرتبطة بعصر معين ، فشخصياته صادقة دائماً في كل زمان ومكان . إنني أود أن أصفه بفوضوي مسيحي ، وكثيراً ما قال لي : «عندما يترك شخص ما الفريق الذي ينتمي إليه ، فهذه بداية إنسانيته .»

مونيكا ماورر :
هل يطابق الواقع في ألمانيا الاتحادية كما يصفه بلْ ما يعبر عنه فيلم «كاترينا بلوم» ؟

شلوندورف :
علينا أن نفرق بين الفيلم وبين الكتاب . فمادة القصة تتغير عندما نضعها في إطار فني آخر . أردت أن أتفادى أسلوب التقرير الصحفي ، مثلما حاولت ألا أعرض نظرية معينة . فإخراج أفلام واقعية يتطلب بالدرجة الأولى التكثيف والتجرد وحتى التصنع بشكل أو آخر ، أي خلق واقع سينمائي قائم بذاته ، نفس الشيء كما لو كنا نحاول أن نتذكر كيف



أنجيلا فينكلر في دور كاترينا بلوم .

شلوندورف :
ان المزيج الذي تمتاز به أعمال بلْ من بساطة في الفهم والتزام بهذه البساطة ووصف دقيق للعالم من حوله ، هذا كله درس مفيد لنا كمخرجين ، فليست مهمتنا هي التخيل وإنما دقة الملاحظة . إن بلْ كاتب كبير فعلاً ، فهو لا يحلل المشاكل لكي يعبر عنها وإنما يصف الشخصيات الصادقة في المواقف الصادقة ، بينما لم نتمكن نحن على الاطلاق من أن نعبر عن تصوراتنا بهذا القدر من البساطة . وهذا الوصف الدقيق للحياة الآن ذو تأثير سياسي ، قد يكون أكبر صدى من الادعاء السياسي العالي الصوت .

كانت الأوضاع في السبعينات . . . وكاترينا بلوم هي في نظري أخت ليني پفايفر الصغرى في رواية «صورة مجموعة مع امرأة»، فاحداها – وهي ليني – تعيش استمرارية التاريخ الألماني من النازية مروراً بفترة ما بعد الحرب وحتى المعجزة الاقتصادية والحركة الطلابية . بينما تعايش الأخرى – كاترينا – واقعنا المباشر فيألمانيا الاتحادية والاتجاهات الرجعية السائدة فيه . سلوك كاترينا مثله مثل سلوك ليني «لا يتفق والزمن الذي تحيا فيه» ، ولكن قصتها تؤثر فينا تأثيراً مباشراً ، فكاترينا شخصية روائية تجذب المشاهد الى التعاطف معها والتشبه بها .

إنها مثل ليني – مليئة بالشفقة والحب والكرامة الانسانية والشرف ، وكلها قيم نضطر شيئاً فشيئاً الى التنازل عنها . وتخاطر كاترينا مثلها مثل ليني – في مواجهة الاتهامات الملفقة وتشويه سمعتها محاولة إنقاذ كرامتها ، فهي تحلم حلمنا جميعاً بتحقيق تلك الانسانية الخالصة، حلم لا وجود له إلا في الأفلام.

مونيكا ماورر :

ما الذي نفقده – يفقده جيلنا وتفقده ألمانيا الاتحادية بوفاة بلْ ؟

شلوندورف :

بالتأكيد كلاهما يفقد شخصاً يحتمل إنهما لم يكونا يستحقانه ، فهو الوحيد الذي كان جديراً بالثقة على مستوى المجتمع كله . وليس من قبيل المصادفة أن رواياته الأخيرة لم تلق نجاحاً كبيراً ، فقد كانت أقل لفتاً للأنظار من التي سبقتها . كثيراً ما ينظر الجمهور الى الأمام ، الى المستقبل ، في محاولة لنسيان علاقته بالزمن ومحو الماضي .

مونيكا ماورر :

وما خسارتك أنت شخصياً بوفاة بلْ ؟

شلوندورف :

خسرت أولاً وقبل كل شيء صديقاً ورفيق طريق كان يشاركني في التظاهر ضد الصواريخ النووية المتوسطة المدى وفي سبيل السلام . لم يكن بلْ ليفرق بين الانسان الروحي والانسان السياسي ، بل أنه كان يحكم على السياسة من خلال عقل الانسان وروحه . هذا كان مقياسه . إن أخاه النجار حرفي ماهر جداً ، بلْ أيضاً كان كذلك هو الآخر : الفارق بينهما أن الأول يعرف كيف يعالج الخشب ، بينما كان بلْ يجيد التعامل مع الكلمات والضمير .

شرح لرسوم الصفحتين ٧٢/٧٣ .

صفحة ٧٢ : – (الأعلى) – الصورة الأولى : مراسل جريدة Zeitung، توتجز (ديتر لازار) بحثاً عن الاثارة الصحفية ، يتنكر ، ويقتحم غرفة العناية الفائقة ، حيث كانت والدة كاترينا بلوم تحتضر ، ويعلمها بما حصل لابنتها .

صفحة ٧٢ : – (الأسفل) – الصورة ٢ : تفتيش بيت كاترينا بلوم من طرف الشرطة .

صفحة ٧٣ : – (الأعلى) – الصورة ١ : مضايقة كاترينا بلوم من طرف الصحافيين قبل الاستجواب .

صفحة ٧٣ : – (الاسفل) – : هاينريش بلْ مع مارغريتا فون تروتا وأنجيلا ڤينكلر ووالدتها .

Neuer Roman über die Monroe
Seite 4
Polizei vermutet:
Dienst-mädchen

هاينريش بـلْ

نادرة لـلـحـطّ من اخـلاقـيّـة العمـل

في ميناء على الشاطىء الجنوبي من أوروبا ، رجلٌ فقير الثياب مستلقٍ ، يهوّم في قارب صيد له . سائح أنيق الزيّ ينتهي لساعته من وضع فِلم جديد في آلـة تصويره ليأخذ صورة للمنظر ببساطته الساحرة : سماء زرقاء ، بحر أخضر وأمواج مسالمة بذراها الثلجية البيضاء ، قاربٌ أسود ، وقبّعة صيد حمراء . «كْلِك» . ومرة أخرى «كْلِك» . وبما أن كل الأشياء الجيدة مثلثة العدد ، وأن التأكد هو الأسلم ، فمرة ثالثة : «كْلِك» . الطقطقة الجافة ، المنفّرة ، والمعادية تقريبـاً توقظ الصيـاد المهوّم ، الذي يقوم مليئاً بالنعاس ، ويحاول ، أن يصطاد علبة سجائره . ولكن ، قبل أن يجد بغيته ، كان السائح المتحمس قد حمل له علبةً تحت أنفه ، غير أنه لم يغرز السيجارة في فمه بالضبط ، بل وضعها في يده . وتأتي «كْلِك» رابعة ، صادرة من علبة الكبريت ، لتنهي المجاملة الهوجاء .

عبر ذلك الافراط في المجاملة النشيطة ، وهو إفراط يصعب قياسه ويستحيل إثباته ، نشأ حرج منفعل حاول السائح – الضليع في لغة البلد – أن يتجاوزه بالحديث :

«سيكون صيدك اليوم موفّقاً .»

هزّة رأس سلبية من جانب الصياد .

«ولكن قيل لي أن الطقس مناسب .»

هزّة رأس ايجابية من جانب الصياد .

«لن تُبحر إذن ؟»

هزّة رأس سلبية من جانب الصياد ، وتوتر متصاعد من جانب السائح . لا ريب أن مصلحة الرجل الفقير الثياب تشغل باله والخوف من الفرصة المفوّتة يحزّ في قلبه .

«آه ، لست بصحة جيدة ؟»

وأخيراً ، ينتقل الصياد من لغة الاشارة الى لغة الكلام المحكيّ حقاً : «إنّي على خير ما يرام . لم أكن في حياتي كلها أفضل مني الآن .» يقف ويتمطى كأنما يريـد أن يعرض قوّة جسمـه الرياضي :

«أشعر بأنني رائع .»

تعابير وجه السائح تزداد تعاسة . لم يعد يقوى على كبت السؤال الذي راح – اذا جاز التعبير – يهدّد بتفجير قلبه : «ولكن ، لِمَ لا تبحر إذن ؟» .

يجيء الجواب سريعاً ، مقتضباً : «لأني قد أبحرتُ صباح هذا اليوم .»

«كان جيداً الى حدٍ يغنيني عن الابحار ثانية . كان في سلالي أربع قطع من السرطان البحري ، وقد اصطدت أكثر من دزينتين من الإسقمري . . .»

يقوم الصياد الآن ، وقد صحا أخيراً ، ويربت على كتفي السائح مطمئناً ، فهو لا يرى داعياً لتعبير الهمّ في وجهه ، رغم كونه بالفعل تعبير قلق مؤثر .

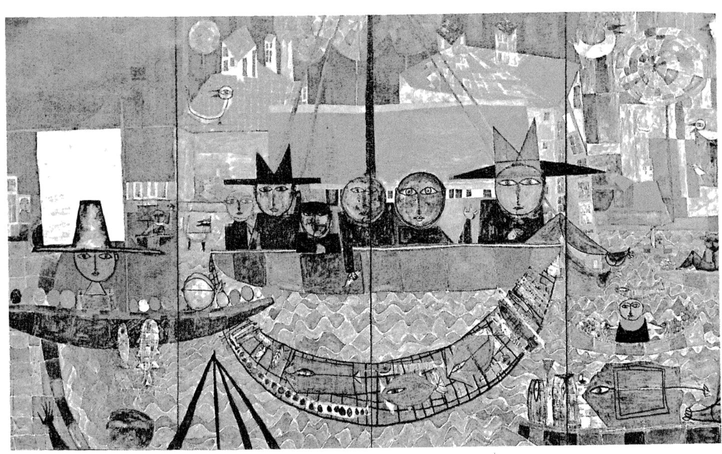
«وحتى عندي ما يكفي غداً وبعد غد .» يقول هذا كي يروّح عن نفس الأجنبي . «هل تدخّن واحدةً من سجائري ؟»

«نعم . شكراً .»

توضع السيجارة في كل من الفمين . «كْلِك» خامسة . الأجنبي يجلس على حافة القارب وهو يهز رأسه ، يضع آلة التصوير جانباً ، فهو الآن بحاجة الى كلتا يديه ليدعم كلامه . «لا أريد التدخّل في شؤونك الخاصة ، ولكن ، تصوّر أنك تبحر اليوم مرة ثانية أو ثالثة أو حتى رابعة ، وتصطاد من الإسقمري ثلاث دزّينات أو أربع أو خمس أو حتى عشر دزّينات . . . هلاّ تصوّرتَ هذا .»

الصياد يهز رأسه موافقاً .

«سوف يمكنك أن تشتري محرّكاً بعد سنة على الأكثر ، وقارباً ثانياً بعد سنتين ، وبعد ثلاث سنوات أو أربع يمكنك أن تحصل على زورق شراعيّ ، وبواسطة القاربين والـزورق الشراعي يمكنك أن تصطاد أضعاف ما تصطاده الآن – ويوماً من الأيام سيكون لديك زورقان شراعيان ، سوف . . .» الحماسة تخطف صوته برهة . «سوف تبني مخزن تبريد صغير ،



فريدنسرايش هوندرتفاسر : الصيد العجيب ، ١٩٥٠ .

وقد تبني معملاً للسمك المدخّن ، وفيما بعد معملاً للتمليح ، وتحوّم بطائرتك العمودية الخاصة فتكتشف تجمعات الأسماك وتعطي التعليمات إلى زورقيك باللاسلكي . يمكنك أن تحتكر حقوق اصطياد السلمون ، وأن تفتح مطعماً ، وأن تصدّر سرطان البحر الى باريس دون وسيط – ثمّ . . .» مرة ثانية ، يعجز الأجنبي المتحمس عن متابعة الحديث . يهزّ رأسه والأسى يملأ قلبه ، وفرحته بالعطلة تكاد تضيع ، وينظر الى المدّ المتقدم بسلام أمامه ، حيث تقفز الأسماك الطليقة بمـــرح «ثمّ . . . » لكن التهيّج يطبق على صوته من جديد . يدقّ الصياد على ظهره ، كما يفعل المرء بطفل شرق بريقـــه . «ثمّ ماذا ؟» يسأل بصوت خافت .

«ثمّ» ، يقول الأجنبي بحماسة هادئة . «ثمّ ، يمكنك أن تجلس مطمئناً هنا في المرفأ ، وتهوّم في الشمس – وتتمتع بمنظر البحر الرائع .»

«لكن هذا بالضبط ما أفعله الآن !» وتابع الصياد : «أجلس مطمئناً في الميناء وأهوّم . لكن طقطقتك أزعجتني .

وبالفعل ، بعد تلك الأمثولة ، غادر السائح المكان مهموماً . فقد كان هو أيضاً يعتقد ، فيما مضى ، أنه إنما يعمل ليوم لا يعود فيه بحاجة الى العمل . ولم يبقَ في قلبه أثر للاشفاق على الصيّاد الفقير الثياب ، وإنما بعض الحسد .

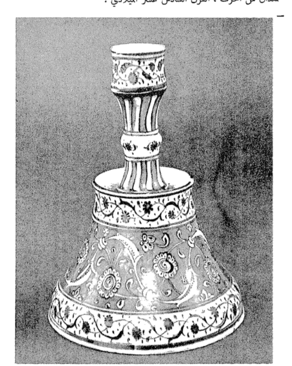
إلفريده جروس

الفن التركي في العهد العثماني

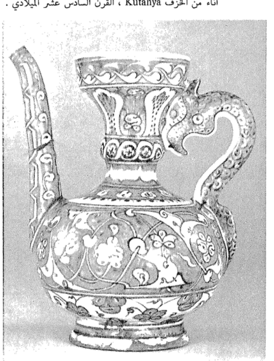
تشهد المعارض الممثلة للفن التركي ولثقافة العهد العثماني المُقامة في فرانكفورت وإسّن على الاهتمام المتزايد بالصلات الثقافية بين الشرق والغرب . ويرجع الفضل في المستوى الرفيع لهذه المعارض الى ما قُدِّمَ اليها من تُحف أثرية مُعارَة من مصادر خاصة وعمومية من أوربا وأمريكا . ولأول مرة تضع تركيا ذاتها معروضات أثرية تعيرها خارج حدودها تحت تصرف تلك المعارض . ويقدم دليل من جزئين ، أخِذت منها الصور المبينة هنا ، إلماماً ممتازاً بكل واحدة من التحف المعروضة . كما تساهم مقالات لاخصائيين مشهورين في التزويد بمعلومات واسعة التفرع عن هذا المجال الثقافي . وإنها المرة الأولى التي يقدَّم فيها في أوربا معرضٌ بهذه الصورة الشاملة .

كانت الدولة العثمانية (١٢٨١ - ١٩٢٢) تضم امبراطورية عظيمة تترامى أطرافها عبر ثلاث قارات . ومع مُضيّ توسعاتها حدث احتكاك بينها وبين شتى الحضارات المتقدمة والأديان النبيلة . وباعتناقهم للاسلام أخذ العثمانيون أيضاً جوانب من التراث العربي - الفارسي . وكان الأخذ بصور الحضارة البيزنطية أصعب ، ذلك لأن استيعاب تاريخ العصور القديمة ودول الغرب المتطبعة بالمسيحية كان محدوداً . ولهذا السبب لم يقتبس العثمانيون سوى تلك العناصر البيزنطية التي كان من الممكن إدماجها في حضارتهم الاسلامية .

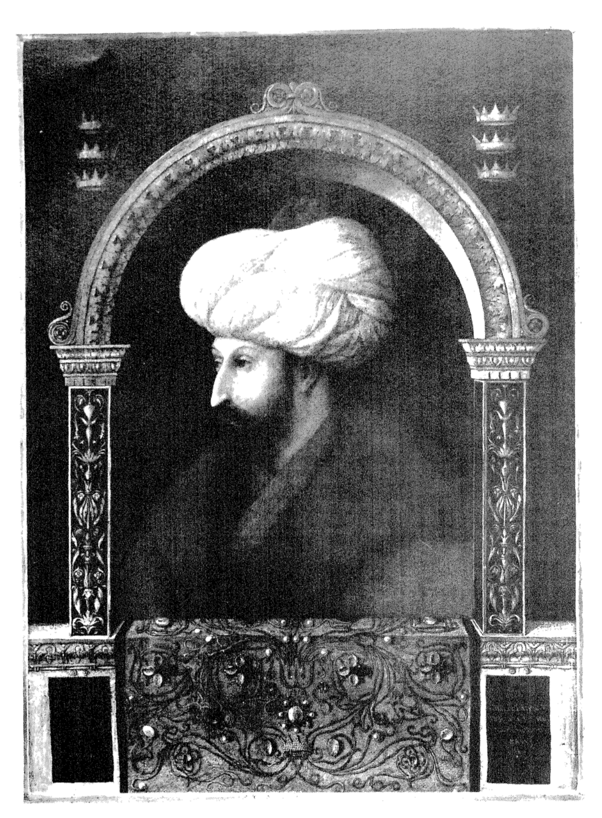
كانت علاقات الأتراك مع الغرب مطبوعة على مدى قرون بطابع النزاعات الحربية . ولم تكن الاتصالات الدبلوماسية التي أقامتها الامبراطورية العثمانية مع عديد من دول أوربا الوسطى والغربية تخدم سوى المصالح الاقتصادية . وكان الجزء غير العثماني من أوربا لا يزال يُسمَّى «**دار الحرب**» ، وكان يُنظَر الى أهله - الذين كانوا يُسَمَّوْن **إفرنجه** - على أنهم كفّار .



شمعدان من الخزف ، القرن السادس عشر الميلادي .



أناء من الخزف Kütahya ، القرن السادس عشر الميلادي .

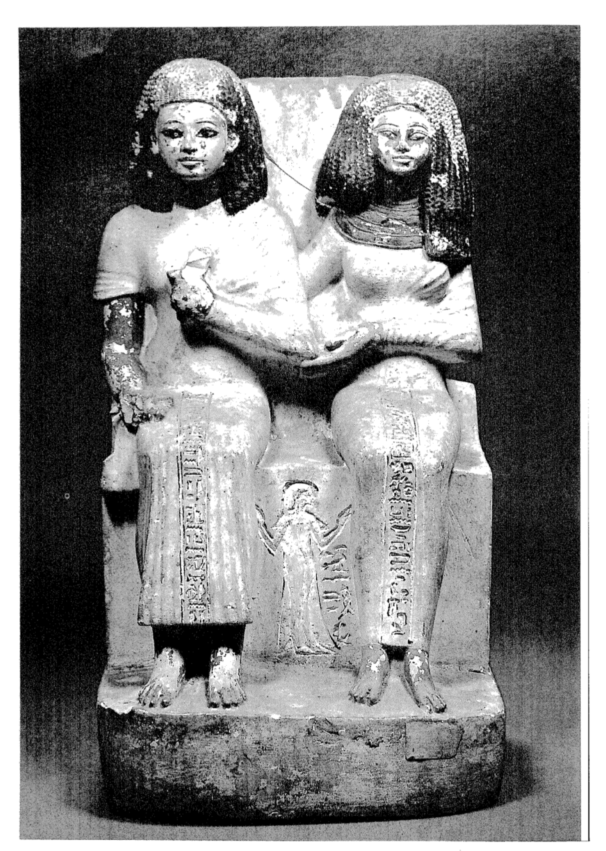


جنتيلي بلّيني : السلطان محمد الثاني الفاتح .



صحن خزفي من ازنيك (القرن السادس عشر الميلادي) .

تمثال فرعوني (الأسرة المالكة ١٩ ، الامبراطورية الجديدة ١٢٥٠) ، من التماثيل التي عرضت في معرض «نفرتيتي الجميلة» الذي نظم سنة ١٩٨٥ في ميونيخ ، في برلين وفي ◁ هلدسهايم .



غير أنه سرعان ما بدأ يظهر إهتمامٌ واضح بالثقافة الأوربية في أوساط الطبقة الراقية المحدودة التي بدأت تتكون تدريجياً . ويرجع السبب في إثارة هذا الانتباه على وجه الخصوص أيضاً الى غنائم الحرب – لا سيا من مناطق البلقان – والى الهدايا المقدمة من السفراء ، وكذلك الى تقارير المفوضيات أوساط الطبقة الراقية المحدودة التي بدأت تتكون تدريجياً . ويرجع السبب في إثارة هذا الانتباه على وجه الخصوص أيضاً الى غنائم الحرب – لا سيا من مناطق البلقان – والى الهدايا المقدمة من السفراء ، وكذلك الى تقارير المفوضيات والاتصالات مع المسافرين .

قام **محمد الثاني** (الملقّب بالفاتح) ، والذي استولى على القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، بحفظ العديد من الآثار التذكارية المسيحية في قصره . وقد عني أيضاً بالديانة المسيحية ودعى البطريق جِنّاديوس شولاريوس ليؤلف مُجملاً للعقائد المسيحية تُرجم الى التركية : فقد كان خليقاً بالطبقة الحاكمة أن تكون على علم برعاياها المسيحيين . وفي إبان حكمه استدعى محمد الفاتح فنانين ايطاليين الى بلاطه . وفي عام ١٤٨٠ – أي قبل وفاته بسنة – سمح للرسام الڤينيسي المشهور جنتيله بلّيني Gentile Bellini أن يرسمه ، في وقت كان الباب العالي في مناوشات حربية مستمرة مع السلطة الحاكمة للبندقية بشأن جزر مختلفة في البحر المتوسط ، كان كلا الطرفين يتنازعان على ملكيتها .

كان محمد الثاني – الحاكم الذي جمع بين السطوة والذوق الفني والاهتمام بالثقافات الأجنبية – في وسعه أن يعصى أمر الدين الاسلامي بعدم عمل صور طبق الأصل من الانسان . غير أن ابنه **بايزيد الثاني** – الذي كان ورعاً شديد التديُّن – قام ببيع الأعمال الفنية الأوربية في السوق . وبطريق الصدفة آلت صورة بلّيني الشهيرة لمحمد الثاني الى المتحف الوطني في لندن . حاول ليوناردو داڤنشي Leonardo da Vinci مثلاً بلا طائل أن يعرض خدماته على بايزيد الثاني لبناء كوبرى فوق خليج القرن الذهبي . بيد أن بايزيد كان يود أن يستخدم لهذا المشروع الفنان العظيم ميخائيل لانجلو ، الذي أراد خليفته سليم الأول أيضاً أن يستدعيه كرسام بالباب العالي .
أمر ابراهيم باشا – الصدر الأعظم لسليمان الأول – بأن تُعرَض في حلبة سباق الخيل التماثيل البرونزية لهرقل وديانا وأپولّو التي آغتُنِمَت من مدينة بادوڤا ، مما كان مدعاة للكثير من القيل والقال . وبعد موته اختفت تلك التماثيل دون أن يُعثر لها على أثر . ومع ذلك فقد كان هناك دوماً معجبون بفن الرسم الأوربي ، الذي لم يبدأ يكتسب تأثيراً ببطء إلا في القرن الثامن عشر . وقد تغير هذا الوضع حقاً في القرن التاسع عشر وفي عصر الاصلاحات – التنظيمات – بدأ السعي الى الاعتماد الوثيق على النشاطات الحضارية الأوربية والتقدم العلمي – التقني للغرب . ومع ذلك فقد كانت لا تزال هناك حاجة الى تخطي التحامل على الدين وعلى التقاليد الحضارية المخالفة . أما العلوم التطبيقية المتعلقة بتكنولوچيا الشئون الحربية فقد كانت مطلوبة منذ القدم . تعامل العثمانيون في غزواتهم الحربية على سربيا مع الأسلحة النارية منذ زمن مبكّر الى حد ما . ولذلك فانهم استخدموا مهندسين ألمان وعمّالاً لسباكة المدافع ايطاليين ومجريين . وبفضل مساهمتهم (تقديم العون والخبرة الفنية) إستطاع محمد الثاني في ذلك الحين عند محاصرته للقسطنطينية عام ١٤٥٣ من إستعمال المدافع . وكان هناك اهتمام بالغ من قبل الأتراك أيضاً بمجالات العلوم الطبيعية والجغرافية والفلك والطب . كذلك أُدخلت طباعة الكتب الى الامبراطورية العثمانية عام ١٧٢٧ بواسطة مجري إرتدّ عن دينه .
في القرن السابع عشر – إبان فترة حكم محمد الرابع – شاعت عند العثمانيين آلات موسيقية أوروبية – وعلى وجه الخصوص آلة الكمان . وبمناسبة ختان أحد الأمراء تعاقد الباب العالي مع فرقة أوپرا ايطالية . وفي النهاية نجح چيوڤانّي دونيتستّي ، الذي كان يشغل في القرن التاسع عشر منصب قائد الفرقة الموسيقية العسكرية للسلطان ، في إدخال الطابع الموسيقي الغربي على نطاق أوسع لدى الحكام العثمانيين . وعلى العكس من هذه العناية بالموسيقى لم يكن هناك لدى العثمانيين حتى أواخر القرن التاسع عشر إهتمام يُذكر بالعلوم والفلسفة والآداب الأوروبية .

تقع فترة إزدهار الفن والثقافة العثمانية المستقلة بشخصيتها في القرن السادس عشر . في ذلك الوقت كانت الفتوحات العثمانية في الغرب قد انتهت وأصبحت أراضي الدولة في حكم المُستتِبَّة . وهنا إنصبّ إهتمام الحكام على تعمير وتجهيز القصر

السلطاني في إستانبول والقصور القائمة في بورصة وأدرنه – والتي كانت لا تزال المقر الصيفي للسلطان . وفي هذا السعي نحو **التعمير الحضاري** كان بوسع الحكام العثمانيين الرجوع الى فن العمارة السلجوقي ، الذي كان قد تطور منذ القرن الحادي عشر في الأناضول .

ومن أهم الأنماط البنائية الجوامع والأضرحة ومستراحات القوافل والقصور التي تطور طرازها تحت التأثير الفارسي . وتتمتع بالشهرة والتميز حتى يومنا هذا المآذن الابرية الهيئة المبنية من الآجرّ والتي ما زالت موجودة أيضاً في أفغانستان والهند . والمميزات النموذجية للمآذن السلجوقية – العثمانية هي الزخارف الفنية المشكّلة من الآجرِ المطلي بطبقة زجاجية لامعة ملونة أو المؤلفة من فسيفساء القيشاني . وامتد الثراء الزخرفي كذلك الى المباني العادية غير الدينية ، حيث كانت توجّه عناية خاصة الى زخرفة البوابات .

لم تلعب طرق القوافل عبر الاناضول في العهد العثماني سوى دور محدود . فقد انتقل مركز الثقل التجاري الى استانبول والبحر المتوسط . وكان من نتيجة ذلك أنه لا توجد حالياً أو لم تكن توجد في الماضي سوى شواهد قليلة على الفن العثماني . واشتمل الفن السلجوقي الكبير – أي الذي يُقصَد به إندماج الفنّين السلجوقي والفارسي – أيضاً أشغالاً معدنية وخشبية وفن السجاد وكذلك فن النسيج . وقد واصلت هذه التقاليد تطورها وطرأ عليها تغيير . وهكذا فقد إختفت على سبيل المثال العناصر الشكلية في الزخرفة .

نشأت في فن الخزف أنماط وأساليب فنية جديدة تماماً . ولقد كانت إزنيق وكوتاهيا في ذلك الحين مصانع مزدهرة ظلت تعمل وحظيت بشهرة عالمية . وفي العهد العثماني تعرّض قيشاني إزنيق بوجه خاص الى تحول سريع في الطراز . فقد سادت منتجات القيشاني البيضاء الزرقاء المزخرفة على الطراز الصيني حوالي عام ١٥٠٠ ، وطراز الغصون اللولبية لمجموعات القرن الذهبي من عام ١٥٢٠ حتى عام ١٥٣٠ ، نموذج ذو ألوان زاهية في أواخر القرن السادس عشر . وهذا التطور مميَّز للفن العثماني الذي اكتسب أسلوب القصور الأوروبية – وهو أسلوب فني ذهب في مسعاه الى الازدياد والعبقرية مذهباً فنياً عالي التطور . وأدّى الولع بتكسية البنايات الكبيرة في استانبول كلية بالبلاط ، والذي بدأ يرتسم في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، في نهاية الأمر الى توقف إنتاج البلاط تماما في القرن السابع عشر ، نظراً لأن محاجر الصلصال في إزنيق قد إستُنفِذَت بالكامل .

وتُعَدُّ مصانع الديباج والحرير الشهيرة في بورصة وأمازيا من المصانع الوطنية للكماليات ، حيث كانت تتنافس على جودة وثراء ألوان منتجاتها التي كان حريرها يُستورَد من إيطاليا . وكان الباب العالي يُنعِم على أتباع مختلفين للسلطان بأردية حريرية ثمينة كملابس تشريفية .

كان المتعهد الرئيسي للفن العثماني هو السلطان ووزراؤه . وكان اذا وُجد نقصٌ في الصُّنّاع اليدويين والمعلمين الحرفيين يتم إستدعاء بنّائين ونقّاشين وعمال غزل وعمال في الصناعات المعدنية وخياطين ونحاتين من مصر وايران أو من دول البلقان الى الباب العالي . وأضيفت الى المنتجات المحلية والأشياء الفنية التي إغتُنِمَت أثناء الغزوات الحربية العديدة تُحفٌ فنية وبضائع إستهلاكية يدوية الصنع أخرى كثيرة .

وقد تمخض عن هذا التوجه نحو الغرب بصوره المتعددة في نهاية الأمر الطراز المعماري الجديد من القصور العثمانية الذي ظلت النماذج الأصلية منه الشرقية والغربية – أي السلجوقية والأوروبية – متميّزة جلية حتى يومنا هذا .

كان الاتقان الصناعي اليدوي المطلق هو الفرض المسلَّم به للفن العثماني . ويبدو هذا الاتقان بوضوح في القرنين السابع عشر والثامن عشر على وجه الخصوص في المخطوطات اليدوية والرسوم المنمنمة وتجليد الكتب ورسومات المصاحف التي تمثّل ذُرى رائعة للإبداع الفني الشرقي بوجهٍ عام وفيها تستمر حضارة وعقيدة الاسلام في ديومة تسحر الزائرين الغربيين .

ديتريش ڤِلدونج

علم الآثار المصرية وآفاق التسعينات

مؤتمر علماء الآثار الدولي الرابع المنعقد في ميونيخ عام ١٩٨٥

لم يرَ علم الآثار المصرية ، أي علم مصر القديمة ، النور إلا منذ ١٦٣ سنة . ففي عام ١٨٢٢ وُفِّقَ العلّامة الفرنسي «چين فرانسوا شامپليون» في حل رموز الأحرف الهيروغلوفية التي طواها النسيان منذ ما يقرب من ١٥٠٠ عام وقدّم بذلك المفتاح لفهم التاريخ والحضارة والديانة المصرية القديمة . وعقب ذلك بثلاثين سنة توطّدت دعائم علم الآثار المصرية في فرنسا وألمانيا كفرع جامعي ، واليوم يتفرع للاهتمام بهذا العلم حوالي ٦٠٠ عالم بالجامعات والمتاحف ومعاهد الأبحاث في ثلاثين دولة من دول العالم . وتقوم ١٥٠ بعثة كل عام في مصر بالتنقيب عن الآثار والمساحة والتوثيق والترميم في حقل الأبحاث الأثرية .

في عام ١٩٧٦ فقط إنعقد لأول مرة في القاهرة مؤتمرٌ دولي لعلماء الآثار المصرية حضره حوالي ٣٠٠ عالم ، لكي يتبادلوا وجهات النظر في المشاكل والمشاريع المشتركة . وإنعقد مؤتمر علماء الآثار المصرية الدولي الرابع في ميونيخ في الأسبوع الأخير من شهر أغسطس (آب) عام ١٩٨٥ . وألقى ما يربو على سبعمائة مشترك ثلاثمائة محاضرة علمية في ستة أيام وناقشوا في عشرين مجموعة قضاياهم وتجاربهم . وقد ظهر بوضوح أكثر من الأعوام السابقة أن علم الآثار المصرية اليوم لم يعد فرعاً واحداً ، بل إنه يمثل حشداً من التخصصات الفرعية المختلفة ، يربط بينهما جميعاً موضوع الدراسة المشترك والحقبة الزمنية والنطاق الجغرافي لأبحاثها . ومع ذلك فان علماء الآثار المصرية مصممون على ألاّ يُفَرّطوا في وحدة هذا الفرع .

وقد تركّز نشاط المؤتمر ، الذي انعقد تحت شعار «علم الآثار المصرية للتسعينات» ، على مستويين هما : أولوية البحث خلال الأعوام القادمة وإستخدام الوسائل التكنولوچية الحديثة ، وعلى وجه الخصوص المعالجة الالكترونية للمعلومات .

وشملت مناقشة الأولويات في بادىء الأمر إعداد وسائل تعليمية أساسية ، لا سيا في مجال اللغة المصرية القديمة . إذ يعتمد علم اللغة المصرية القديمة اليوم على قاموس للغة المصرية القديمة تم تأليفه منذ خمسين سنة ، وبالتالي فانه لا يأخذ في الاعتبار النصوص التي تفوق الحصر والتي إكْتُشِفَتْ ونُشِرَت على مدى نصف القرن الأخير . هناك نقوش وأوراق بردى لا حصر لها مكدسة في المتاحف أو مدوّنة في المعابد والمقابر بمصر لم يتم نشرها حتى الآن . ولا بد أن تُدَوَّن الرموزُ الهيروغلوفية التي تربو على الخمسة آلاف والتي تتألف منها النقوش .

ويُمثِّل الكشف عن الآثار وتدوينها في سجلّات وترميمها في مصر نفسها ، أي البحث الميداني ، أولويةً من نوع خاص . إن الوضع الحالي في مصر ، المتسم بنمو سكاني وبتوسع عمراني سريع – خاصةً في المناطق الآهلة بالسكان – وبزيادة في التصنيع ، يهدِّد بصورةٍ لم يُعرَف لها مثيلٌ ثروة النُّصُبِ التذكارية العتيقة الموجودة في مصر . إذ هيَّأت مصلحة الآثار المصرية برئاسة مديرها النشط الدكتور أحمد قَدْري في السنوات الأخيرة الأسباب التنظيمية لمساهمة فعالة من جانب فرق من علماء الآثار المصريين والأجانب . فقد باشرت مصلحة الآثار المصرية في السنوات الأخيرة على نطاق واسع بترميم الآثار المعرضة للخطر ، وأولت المتاحف في مصر عناية خاصة . وأُنشِئت متاحفٌ اقليمية في كل أرجاء الدولة ، قلّلت من التركيز المألوف في الماضي لكل الأشياء الأثرية المكتشفة في متحف الآثار المصرية بالقاهرة وأعطت صورة جديدة للشعب حول ماضيه .

وبجانب المتاحف الاقليمية العديدة من أسوان حتى الاسكندرية يقوم مشروع كبير لانشاء مَبنَيَين جديدين أحدهما لمتحف بلاد النوبة في أسوان والثاني للمتحف القومي

للحضارة المصرية في القاهرة . وشُكِّلت من أجل المشروعين هيئة دولية من المتخصصين بإشراف منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) والمجلس الدولي للمتاحف (الإيكوم) ، حيث تقوم هيئة الآثار المصرية حالياً بتطبيق توصياتها عند التصميم النهائي للمتحفين . ويتوجب على الجمعية الدولية لعلماء الآثار المصرية أن تقدِّم نتائج أعمالها وخبراتها الى المنشآت التنظيمية والمشروعات الطويلة الأجل التي قام الجانب المصري بإعداد إطارها .

ولا يكون الاستخدام الفعّال للطاقة العلمية المتاحة ممكناً إلا إذا إستعان علمُ الآثار المصرية بالطرق والأساليب الحديثة التي قامت الفروع الأخرى بإنجازها . ولذلك فقد وجه المشتركون في المؤتمر إهتماماً خاصاً الى قسم الحاسبات الالكترونية الذي يُعنى بالتدوين والمعالجة الالكترونية لنصوص الآثار المصرية وقُدِّمَت عدة طرق لكتابة الهيروغلوفية بواسطة الحاسبات الالكترونية وتم شرحها في التطبيق العملي . وتُستَغَل المعالجة الالكترونية للمعلومات بدرجة متزايدة أيضاً في إعداد فهارس الكتب والمراجع ، وقد إستُخدمت فعلاً في عدة متاحف كجهاز للتقديم الآلي للمعلومات المتعلقة بالأشياء المعروضة .

ويكشف التعاون بين المتخصصين في حقبة ما قبل التاريخ وبين المتخصصن في الأنثروبولوچية عن معلومات هامة بالنسبة الى حقبة ما قبل التاريخ في مصر والتي لم يُكتب عنها شيء ، ونفس الشيء يقال أيضاً عن البحث العلمي المتعلق بفن الخزف الذي قام بفحص كميات الخزف الهائلة الموجودة في مواقع الاكتشاف .

وكانت مشاركة أعضاء المؤتمر في مجموعة العمل الخاصة بتاريخ الفن كبيرةً الى درجة ملحوظة . وقد أبرز ذلك أهمية فن مصر القديمة كوسيلة إعلام قوية الدلالة ؛ ولفترة طويلة لم يكن الفن المصري يُستَخدم إلا كتوضيح للمقالات التاريخية والتاريخية الدينية . ولغير المتخصص بالذات يقدِّم الفن المصري أكثر المداخل مباشرة الى الحضارة المصرية ويحتاج لهذا السبب الى أسس علمية متقنة بصفة خاصة .

ويشكل إعلام الجمهور بمهام وخطط علم الآثار المصرية جزءاً أساسيا من مؤتمر علماء الآثار المصرية الدولي الرابع . وقد نُظمت أربعة معارض خاصة بمناسبة هذا المؤتمر . فقد عُرضت بالمتحف الألماني لتاريخ الطب في إنجولستِت عيِّنات من طب المصريين القدماء الذي يؤسس في بعض نواحيه المرحلة التهيدية المباشرة للطب اليوناني وبالتالي للطب الغربي .

وفي معرض ميونيخ تم فحص الموميا المصرية القديمة بأحدث الوسائل التكنولوچية . وقد أتاحت هذه الفحوص إعادة تكوين صورة عن الهيكل التوزيعي لمعدلات أعمار الشعب المصري القديم وعن نمط معيشته ، وكذلك معرفة الأعراض المرضية التي كانت تعتريه وطرق معالجتها ، وتكشف لنا عن ممارسات دينية مثيرة للاهتمام ، مثل إستبدال الأحشاء المنزوعة من بدن الميت بتماثيل صغيرة للآلهة مصنوعة من الشمع . كما عُرضت رسوم أصلية خاصة بالبعثات الاستكشافية التي قام بها العلاّمة كارل ريتشارد لپسيوس من عام ١٨٤٢ حتى عام ١٨٤٥ في مصر والسودان بتكليف من ملك پروسيا . وساهمت في إثراء معرض لپسيوس معروضات لصور فوتوغرافية إلتقطها رائد فن التصوير الفوتوغرافي ج . أ . لورنت ، الذي زار مصر من عام ١٨٥٨ حتى عام ١٨٦٠ وسجَّل بلقطاته ذات القطع الكبير لآثار وفنون معمارية إسلامية وفرعونية شاهداً لا يُقدَّر بثمنٍ لأعمال فنية إندثرت اليوم . وقد حظى معرض «الاكتشافات» ، الذي عُرض فيه فنٌ مصريٌ أُستُعيرت تُحَفُهُ من مجموعات ألمانية جنوبية مختلفة قليلة الشهرة ، باهتمام خاص من جانب العلماء الذين وفدوا الى المؤتمر في ميونيخ ، وشهد إقبالاً كبيراً من الجمهور المهتم بمصر اهتماماً فائقاً . وأظهرت تماثيل صغيرة وأواني وأشكال برونزية وتمائم ذات نوعية فنية عالية ، البراعة الفذة للفنانين المصريين القدماء في تمثيلهم لعالم متآلف منسجم . ولا تستطيع وسيلة أخرى خلاف الفن أن تعبّر هكذا بصورة مباشرة عن أهمية مصر القديمة بالنسبة للانسان الحديث .

لقد كان الاهتمام الكبير الذي قوبلت به هذه المعارض بمثابة دعوة للمشتركين في مؤتمر علماء الآثار المصرية الدولي الرابع في أن يستحثوا قُدُماً إستكشافاتهم لحضارة مصر العتيقة بعزيمة وتفاؤل ، وبمثابة تنبيه للجهات المسئولة عن تمويل أبحاث علم الآثار المصرية لكي تفي بالتزاماتها نحو الحفاظ على هذا التراث ومساعدة مصلحة الآثار المصرية في أداء واجباتها الجليلة .

لقد أثبت هذا المؤتمر أنه يحق لنا أن نتفاءل بمستقبل علم الآثار المصرية .

ملاحظات حول المؤتمر السادس عشر للعلوم والدراسات التاريخية

أكثر من ألفي مؤرخ من تسعة وخمسين بلداً حضروا المؤتمر السادس عشر للعلوم والدراسات التاريخية الذي انعقد في مدينة شتوتجارت من ٢٥ الى ٣١ أغسطس (آب) ١٩٨٥ تحت إشراف رئيس جمهورية المانيا الاتحادية . وقد لقي هذا المؤتمر العالمي الهام عناية كبيرة من طرف المؤسسات العلمية الالمانية . كما أنه أبرز اهتمام علماء التاريخ المتزايد بالمسائل الكبيرة التي تشغل عصرنا .

ومن الطبيعي أن يكون عدد المؤرخين الألمان هو الأكثر باعتبار أن بلدهم هو المضيّف . أما جمهورية المانيا الديمقراطية فقد أرسلت خمسين مؤرخاً . وكان هناك تسعون من المجر وخمسة وسبعون من بولونيا وستون من رومانيا واثنان وسبعون من الاتحادالسوفياتي . ويمكن أن نقول بأن الحضور المكثف لمؤرخين من الشرق الأقصى وبخاصة من الصين واليابان وكوريا الجنوبية هو من أهم ما تميز به هذا المؤتمر . غير أن المساهمة الأوربية كانت كبيرة .

أحد المشاركين الألمان قال مازحاً بأن المؤتمر شبيه بمعرض ضخم يعرض فيه المنتجون سلعهم على الناس . وهذه الملاحظة صحيحة الى حد كبير ، إذ أن الدراسات والبحوث التي قدمت كانت حيّة وجديدة شكلاً ومضموناً . حتى المؤرخين المختصين في المسائل المتعلقة بالعصور القديمة أبدوا اهتماماً بالغاً بمسائل هذا العصر والعديد من المواضيع التي تطرقوا اليها متصلة اتصالاً مباشراً بما يحدث حالياً في العالم .

وقد تناولت البحوث مواضيع كثيرة تدور حول التاريخ البيزنطي وتاريخ البحار والثورة الفرنسية والحرب العالمية الثانية ، وتدور بالذات حول علم المقاييس . وناقش المشتركون في المؤتمر جملة من المسائل الأخرى ، مثل علاقة المواطن بالادارة والصلة بين ثقافة النخبة وثقافة الشعب وبين الأشكال الديبلوماسية قديماً وحديثاً . بل أن البعض منهم مثل المؤرخ الفرنسي ايمانويل لورو لاديري Emmanuel le Roy Ladurie ذهب الى حد طرح مفهوم التسامح عبر مختلف العصور . وكانت ذكرى انتصار الحلفاء في عام ١٩٤٥ أحد المواضيع الرئيسية التي بحثها المؤتمر . وقد خُصِّص يومٌ كامل لدراسات شارك في إعدادها أكثر من خمسمائة مشارك وتناولت مواضيع تتعلق بالمقاومة ضد الفاشية والنازية وبتاريخ اليابان إبان الحرب العالمية الثانية .

وبما أن شتوتجارت ليست موطن هيجل والمدينة التي قضى فيها شتاوفنبيرج Stauffenberg (الرأس المخطط لانقلاب ٢٠ يوليو/تموز ١٩٤٤ ضد هتلر) شبابه فحسب ، بل هي أيضاً عاصمة سيارة المرسيدس ، فقد قام عدد كبير من الحاضرين ببحث تاريخ السيارة منذ قرن وتأثيراتها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية .

ومن بين المواضيع الرئيسية الأخرى التي نوقشت في المؤتمر موضوع تاريخ الثقافة لدى الأقليات والمغتربين والمهاجرين وبالذات الهامشيين ، أي تلك المجموعات التي لم تتمكن من صنع تاريخها أو من البحث فيه وأريد لها العيش في عالم بارد وصامت . الى جانب ذلك خصص المؤتمر يومين لبحث موضوع علم التاريخ ولمناقشة ما يسمّى بالتاريخ السردي والتاريخ البنيوي . كما اهتم المؤتمر بدراسة أعمال ماكس ڤيبر Max Weber باعتبارها تمثل منهجية جديدة وتطوراً في الفكر التاريخي العالمي .

والذي ألفت الانتباه في هذا المؤتمر إنحسار الماركسية في الدراسات التاريخية بعد أن كانت مسيطرة سيطرة كبيرة حتى على المؤرخين الليبيراليين . والسبب هو أن الماركسية ذبلت ذبولاً كبيراً في البلدان الشرقية كما أنها فقدت تأثيرها على المثقفين في البلدان الغربية ولم تعد الطريقة الأمثل لدراسة شؤون المجتمعات ومسائل التاريخ .

وبالرغم من أن التراث العربي يزخر بالدراسات التاريخية العظيمة تشهد بذلك أعمال الطبري والمسعودي وابن خلدون وغيرهم فان المشاركة العربية كانت ضعيفة للغاية . ولم يتمكن المؤرخون الذين قدِموا من تونس ومصر والعراق والمملكة المغربية من سد الفراغ . غير أن المؤتمر كان بالنسبة لهم هامّاً إذ أنه سمح لهم بأن يستفيدوا من الدراسات المقدمة ومن أن يطرحوا وجهات نظرهم في العديد من القضايا المتعلقة بحضاراتهم وأيضاً في المسائل المتعلقة بعلم الآثار وبالفيلم كمصدر جديد من مصادر التاريخ .

ولا بد أخيراً من الاشارة الى الدور الفعال الذي قامت به رابطة المؤرخين الالمان في التنظيم وفي اقامة أنشطة ثقافية ورحلات علمية على هامش المؤتمر .

(حبيب جنحاني)

حول الملتقى الثالث والعشرين للمستشرقين الألمان

انعقد في مدينة ڤورتسبورج Würzburg ما بين السادس عشر والعشرين من سبتمبر (أيلول) الماضي المؤتمر الثالث والعشرون للمستشرقين الألمان . وفي هذا المؤتمر ، الذي ينعقد مرة كل ثلاث سنوات في العادة ، اتضح من جديد مدى الاهتمام العلمي الواسع الذي أصبح يولى للشرق الأدنى في حقل الدراسات الشرقية في العقود الأخيرة . وكما جرت العادة ، فقد دُعِيَ ضيوفٌ أجانب ،كما ألقيت محاضرات باللغتين الانجليزية والفرنسية ، بينما كان اشتراك العلماء والباحثين العرب ، مع الأسف ، أقل بكثير مما كان عليه الحال في المؤتمرات السابقة .

وفي القسم الخاص «بالشرق الاسلامي» ، وهو أقوى أقسام المؤتمر عموماً ، قدّم العلماء أحدث نتائج أبحاثهم . وقد تعادلت في ذلك المواضيع المتعلقة بالعصر الكلاسيكي مع الأبحاث الخاصة بالقرنين التاسع عشر والعشرين . وكان أبرز الضيوف بدون شك رئيس وزراء ايران السابق ، الدكتور مهدي بزرگان ، الذي تحدث عن طريقة جديدة للترتيب الزمني للسور والآيات المكية والمدنية .

وقد جاءت الدراسات الدقيقة للمصادر المعروفة حتى الآن بنتائج مدهشة مفاجئة : إذ طرح أولريش هارمان (فرايبورج) في معرض دراسة سيرة العالم **أبي الحامد القدسي** (٨٨٨ هجرية/١٤٨٣ ميلادية) سؤالاً ساخراً فحواه : «أيهما أشد عبئاً على النفس : الحكم المستبد الجائر أم غطرسة زملاء الحرفة ؟» وكشف ميشائيل كولر (هامبورج) النقاب عن مظاهر جديدة من التعاون بين الفاطميين والصليبيين : «الفضل والقدس – ماذا توقعت مصر لنفسها من وعود من الحملة الصليبية الأولى ؟» وتحدث ب . رادتكه (بازل) حول النقد الموجه الى المتصوفين ، بينما تكلم إ . ماير (كولونيا) حول موضوع «العدالة عند ابن رشد» .

وفي محاضرة ذكية بارعة عالج پيتر باخمن (غوتنجن) نصوصاً لابن عربي صيغت فيها شروح وتفاسير صوفية قرآنية في قوالب شعرية على جانب كبير من الروعة والجمال الفني ، بينما أثبت أولريش مارتزولف (كولونيا) وشتيفان ليدر (فرانكفورت) في محاضرتين حقيقة انتعاش الأساليب النثرية القديمة في النتاج الأدبي العربي . وألقى باحثان أضواءً جديدةً على حقول مهملة من البحث ، فتحدث هارالد مونسكي (هامبورج) حول الفتاوى كمصدر تاريخي (ايبنهاوزن) حول الأحزاب السياسية في مصر المعاصرة .

وخصصت محاضرتان لموضوع الاسلام في نيجيريا ، فقدم جميل أبو النصر (بايرويت) شرحاً للنقاش الدائر حول تطبيق الشريعة في نيجيريا ، بينما قدم شتيفان رايشموت تقريراً حول التعليم العربي الاسلامي في جنوب البقاع السلافية ، وتحدث ڤرون إقبال عن رحلة سرية الى البرازيل قام بها الموفد الديبلوماسي الفارسي مرزا أبو الحسن خان شيرازي عام ١٨٦٠ . ولم يُحرَم الأدب العربي الحديث من نصيبه أيضاً ، فقد قدم فولف – ديتر ليكه (بيروت) الشاعر المصري أمل دنقل (١٩٤٠ – ١٩٨٣) ، الذي يكاد يكون مجهولاً في ألمانيا وتحدث د . ناجي نجيب عن موضوع «فقد الأب» في الرواية المصرية المعاصرة .

والخلاصة : فان الاستشراق الالماني أخذ يغادر برجه العاجي ، بخطى وئيدة ، ولكن بكل تأكيد .

شتيفان ڤيلد (بون)

عزيز القزاز

معهد الشرق الألماني في هامبورج

نبذة مختصرة عن تطوره وإنجازاته لمناسبة عيد ميلاده الخامس والعشرين

يحتفل معهد الشرق الالماني في هامبورج في هذا العام (١٩٨٥) بعيد ميلاده الخامس والعشرين ، وهي مناسبة جيدة لالقاء الضوء على هذا المعهد الذي يلعب دوراً متنامياً في تطوير العلاقات الالمانية مع بلدان الشرق الأدنى والأوسط .

من المعلوم أن عدد وحجم ووظائف معاهد الأبحاث التي تعمل في دولة صناعية معينة والتي تختص بدراسة منطقة معينة من العالم تتناسب مع حجم ونوعية المصالح السياسية والاقتصادية والثقافية التي تربط هذه الدولة الصناعية بتلك المنطقة . ومن المعلوم أيضاً أن هذه المعاهد تتأثر وتؤثر بسياسة الدولة المعنية وبتطورها . والمانيا لا تشذ عن هذه القاعدة العامة .

بعد هزيمة المانيا في الحرب العالمية الثانية وتقسيمها تضاءل نشاط الباحثين الالمان المتعلق بالقضايا السياسية والاجتماعية لبلدان الشرق الأدنى والأوسط وتراجع نشاط المستشرقين لينحصر في المواضيع الادبية والتاريخية والاثرية . ولم تكن هناك في المراحل الاولى بعد تأسيس جمهورية المانيا الاتحادية (١٩٤٩) أبحاث لعلماء السياسة والاقتصاد الالمان تتعلق بقضايا الشرق الحديث ، ذلك لأن قضايا العالم الثالث لم تكن في ذلك الوقت تلعب دوراً مهماً في السياسة الالمانية ، ولأن الاهتمام الالماني كان يتركز على إعمار ما دمرته الحرب وعلى معالجة قضية الوحدة الالمانية وبناء نظام سياسي اجتماعي جديد في ألمانيا . وبقي هذا الحال حتى في السنوات التي تلت استرجاع جمهورية المانيا الاتحادية لسيادتها في ميدان السياسة الخارجية بموجب اتفاقيات باريس ١٩٥٥ .

ولكن الوضع بدأ يتغير بصورة جوهرية منذ نهاية الخمسينات حيث بدأت السياسة الخارجية الالمانية تخفف من تركيزها الشديد على قضايا النزاع بين الشرق والغرب وقضايا الوحدة الالمانية وتوسع دائرة عملها لتشمل مجالات أخرى من السياسة الدولية وخاصة مشاكل العالم الثالث . لذلك نشأت حاجة كبيرة الى دراسات موضوعية عن البلدان النامية . وكانت هذه الحاجة تزداد بسبب اتساع العلاقات الاقتصادية الالمانية مع العالم الثالث ومنه المنطقة العربية .

وفي الحقيقة بقي الاهتمام الالماني بمنطقة الشرق الادنى والاوسط حتى أواسط الستينات يتركز على العلاقات التجارية والاقتصادية . وهذا الاهتمام يرتبط من جانبه بتصاعد أهمية التجارة الخارجية بالنسبة لتطور الاقتصاد الالماني وحياة المواطنين . فلا عجب إذن أن تكون أولى المؤسسات التي أنشئت لدراسة وتطوير علاقات ذات طبيعة اقتصادية وأن تأتي المبادرة لتأسيس معهد الشرق الالماني من الاوساط الاقتصادية . فقد تم تأسيس أول غرفة تجارية مشتركة في كانون أول ١٩٥١ وهي غرفة التجارة الالمانية المصرية في القاهرة ، تبعها تأسيس غرفة التجارة الالمانية الايرانية في عام ١٩٥٢ . وقد سبق هذه الخطوات الاولى تأسيس جمعية الشرق الادنى والاوسط في شباط ١٩٥٠ من قبل عدد من الشركات الالمانية العاملة في الشرط الاوسط . وعلى يد جمعية الشرق الادنى والاوسط هذه تم في مايو (أيار) ١٩٦٠ تأسيس «مؤسسة الشرق الالمانية» و «معهد الشرق الالماني» . وقد أوضح رئيس الجمعية آنذاك الدكتور **ألفرد تويبفر** في خطابه في حفلة التأسيس التي أقيمت في ١٤/يونيو (حزيران)/١٩٦٠ في فندق أتلانتيك ضرورة إنشاء مثل هذا المعهد الذي سيعمل على سد الثغرة الكبيرة القائمة في دراسة التطورات المعاصرة لمنطقة الشرق الادنى والاوسط ، كما أوضح الوظائف الأساسية للمعهد التي تتمثل في رعاية وتطوير العلاقات بين المانيا الاتحادية وبلدان الشرق في المجالات الاقتصادية والثقافية والسياسية ، وأشار أيضاً الى الآمال المعقودة على المعهد «ليصبح مركز أبحاث رائد تتمثل فيه عدة فروع علمية لدراسة القضايا المعاصرة للمنطقة الواقعة بين شمال افريقيا وباكستان» . وقد تم تثبيت هذه الأهداف في النظام الداخلي الأول لمؤسسة الشرق الالمانية الذي صادقت عليه حكومة ولاية هامبورغ بتاريخ ٨/مايو (أيار)/١٩٦٠ .

أما على الصعيد العلمي فقد قام المعهد بتكوين وتطوير مكتبة وأرشيف وباقتناء عدد متزايد من الكتب والمجلات المتخصصة والجرائد اليومية باللغات الشرقية والأوربية من داخل وخارج المنطقة . كما أسس وحدة خاصة للتوثيق تابعة له أسماها «مركز التوثيق للشرق الحديث Dokumentationsleitstelle Morderner Orient وقد بدأت هذه الوحدة عملها الفعلي في ١/مايو (أيار)/١٩٦١ . ومنذ البداية كان النشاط التوثيقي يتجاوز دائرة الحاجة للمعلومات الاقتصادية ويمتد الى الميادين السياسية والاجتماعية والثقافية . ومنذ البداية أيضاً بدأ المعهد في سنة تأسيسه (١٩٦٠) بإصدار المجلة الفصلية **«أورينت» ORIENT** التي تطورت بمرور الزمن لتصبح المجلة العلمية الرئيسية في المانيا المتخصصة بقضايا الشرق الحديث . ومن الناحية التنظيمية والادارية ، وهي ناحية تؤثر في نوعية واتجاهات العمل ، يمكن تقسيم تاريخ المعهد الى فترتين مختلفتين : الفترة الأولى تمتد من ١٩٦٠ – ١٩٧١ والفترة الثانية تمتد من ١٩٧١ – ١٩٨٥ . الفترة الأولى تتميز بالاندماج الكلي بجمعية الشرق الادنى والاوسط تنظيمياً وإدارياً ، حيث كانت الادارة الموحدة بيد الدكتور **إرنست – أوغوست مسرشميدت** Messerschmidt الذي كان في المقام الأول رجل اقتصاد . في هذه الفترة كان نشاط المعهد يتركز على دراسة الهياكل الاقتصادية لبلدان المنطقة وعلى العلاقات التجارية والتعاون التنموي بين ألمانيا وهذه البلدان وكان هذا الشرط يتناسب مع الحاجة الماسة للمعلومات الموضوعية الموثقة عن الأنظمة والهياكل الاقتصادية وتطورها ، وان لم يكن في استطاعته سد تلك الثغرة الكبيرة كلياً المتمثلة بالغياب شبه الكامل لهذا النوع من الدراسات في الساحة الالمانية . وهكذا أصدر المعهد كتباً مونوغرافية عن الاقتصاد وتطوره في بعض أقطار المنطقة منها أفغانستان (١٩٦٦) ومصر (١٩٦٧) وباكستان (١٩٦٧) والعراق (١٩٦٩) ولبنان (١٩٦٩) كما نشر أبحاثاً ومقالات عن مواضيع معينة مثل مكافحة الأمية في ايران (١٩٦٦) والاشتراكية الجزائرية (١٩٦٩) والعلاقة بين الاشتراكية العربية والاسلام (١٩٦٩) وعن الاتحاد الاشتراكي العربي والنظام الدستوري في مصر (١٩٧٠) وعن التعاونيات الزراعية في باكستان . ومع هذا التركيز الشديد على المواضيع الاقتصادية لم يخلو نشاط المعهد كلياً من المواضيع السياسية والاجتماعية . فقد أصدر المعهد مثلاً في عام ١٩٦٧ دراسة علمية شاملة تحتوي على ٣٤٥ صفحة عن مشكلة حدود عدن في قضية الجنوب العربي وتطورها التاريخي من ١٩٠٠ الى ١٩٦٧ . وقبل ذلك كان نفس المؤلف (الدكتور أولريش غيركه) الذي كان يعمل في المعهد قد نشر في عام ١٩٦٣ دراسة تاريخية مفصلة من ٣٥٢ صفحة عن نشوء الدولة العراقية وتحديد حدودها ومشاكل الحدود مع البلدان المجاورة .

في عام ١٩٧١ توفي المدير المشترك للمعهد والجمعية الدكتور مسرشميدت . وكانت وفاته بمثابة نقطة انعطاف في تاريخ المعهد ، ذلك لأنها كانت مناسبة لاجراء تغييرات جوهرية في النواحي التنظيمية والادارية والتمويلية للمعهد . هذه التغييرات كانت ضرورية لتطوير المعهد وزيادة اهتمامه بالمواضيع السياسية والثقافية المعاصرة بعد أن ازدادت أهمية منطقة الشرق الادنى والاوسط في السياسة الدولية عقب حرب حزيران ١٩٦٧ وبعد أن بدأت عملية تبلور سياسة المانية اتجاه تلك المنطقة .

أهم تغيير كان فك التشابك التنظيمي مع جمعية الشرق الادنى والاوسط وتحقيق الاستقلال القانوني والاداري للمعهد وفتح الطريق أمامه للتركيز أكثر فأكثر على البحث العلمي والأكاديمي الذي يخدم الصالح العام ويمول كلياً من قبل الدولة . ومع هذا التغيير تعزز انتماء المعهد الى «مؤسسة المعهد الالماني لدراسات ما وراء البحار» التي تضم الى جانب معهد الشرق الالماني أربعة معاهد أخرى يغطي نشاطها البحثي والتوثيقي كل العالم الثالث ، وهي المعهد الالماني لدراسات أمريكا اللاتينية والمعهد الالماني للأبحاث العامة لما وراء البحار . لكل معهد من هذه المعاهد ادارته وشخصيته القانونية المستقلة ، ولكنها من ناحية الميزانية السنوية تشكل وحدة ادارية ، كما تقوم بتنسيق نشاطاتها في بعض المجالات . جميع هذه المعاهد تقع في مدينة هامبورغ في أبنية مجاورة .

ومن الناحية التمويلية تم وضع المعهد على قاعدة مستقرة عندما التزمت حكومة ولاية هامبورغ والحكومة الاتحادية في بون بتمويل المعهد كلياً ، وهو مؤشر لازدياد

اهتمام الدولة والمجتمع بقضايا الشرق الاوسط المعاصرة من جهة وللموقع المتميز الذي وصل اليه المعهد في الاوساط العلمية والسياسية من جهة أخرى .

بعد هذه التغييرات اتسع نشاط المعهد في مجالات البحث والتوثيق والاعلام بصورة ملحوظة واتسعت شبكة علاقاته بمؤسسات الأبحاث في الداخل والخارج وازادت أعداد منشوراته وتحسنت نوعية النتاج العلمي وتطورت مجلته **«أورينت»** ORIENT من حيث النوعية والحجم لتصبح بحق المجلة الرئيسية المتخصصة في المانيا ولتستقطب أبحاث كبار العلماء ولتكتسب بذلك سمعة طيبة على المستوى العلمي .

هذه التطورات لا تعني تغيراً في الأهداف السياسية للمعهد أو في منطقة اختصاصه وإنما تحسناً في الأداء . منطقة الاختصاص هي منطقة الشرق الأدنى والأوسط التي تشمل جميع الدول الأعضاء في جامعة الدول العربية وفلسطين/اسرائيل وقبرص وتركيا وايران وباكستان وأفغانستان . أما الأهداف الأساسية فقد تم تثبيتها مجدداً في دستور «مؤسسة الشرق الالمانية» الجديد الذي أقرته حكومة هامبورغ بتاريخ ٥/فبراير (شباط)/١٩٧٦ والذي تنص مادته الثانية على ما يلي :

«هدف المؤسسة هو تطوير وتعميق العلاقات بين جمهورية المانيا الاتحادية ودول وشعوب الشرق الادنى والأوسط في مجالات العلوم والاقتصاد والثقافة والسياسة . لتحقيق هذا الهدف ترعى المؤسسة معهداً للأبحاث يتخصص بدراسة القضايا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للشرق الحديث .

في إطار أحكام هذاالدستور توسع مجلس ادارة المعهد الى سبع شخصيات ومجلس أمنائه الى ثماني عشرة شخصية تضم شخصيات بارزة من أهل العلم والاقتصاد والسياسة .

أما بالنسبة للأولويات فقد بقيت المواضيع الاقتصادية تتصدر اهتمام المعهد . وكان هذا الاهتمام في الفترة ١٩٧٢ - ١٩٨٥ يتصب على تحليل الأنظمة الاقتصادية القائمة وتصورات السياسة الاقتصادية وكيفية تطبيقها في الواقع العملي والجوانب الايجابية والسلبية في هذه النظريات والتطبيقات وكذلك على معالجة المشاكل الاقتصادية الراهنة ، سواء أكان ذلك على مستوى القطاعات أو الاقطار المنفردة أو مجموعة معينة من البلدان أو المنطقة كلها وعلاقاتها الاقتصادية بمناطق العالم الأخرى . من الدراسات الاقتصادية التي تتعلق بقطر واحد نذكر على سبيل المثال كتاب عزيز القزاز عن «تطور الاقتصاد العراقي - ستراتيجية البعث في التطبيق» الذي صدر عام ١٩٨١ وكتاب توماس كوشينوفسكي عن «العربية السعودية - قوة نفطية وبلد نامي» (١٩٨٣) وكتاب منير الدين أحمد وكورت ايتنر عن «جمهورية السودان - الدولة والسياسة والاقتصاد» (١٩٨٠) وكتاب فولفغانغ - بيتر تسينغل عن «باكستان في عقدها الرابع» (١٩٨٤) . أما بالنسبة للدراسات القطاعية فيمكن الاشارة على سبيل المثال الى الدراسة التي أصدرها المعهد عام ١٩٧٦ عن «قطاع النقل ومشاكله في بلدان المشرق العربي وايران» وكتاب هانز يورغن فيليب عن «التحديث الزراعي في العربية السعودية في القرن العشرين» (١٩٨٤) ودراسة عزيز القزاز وأنطون غلي من «قطاع المصارف في المنطقة : هيكله ، أهدافه وأهميته الاقليمية» (١٩٨٥) . ومن الدراسات التي تتعلق بعموم المنطقة نذكر كتاب عزيز القزاز عن مساعدات التنمية العربية للعالم الثالث ومؤسساتها الذي صدر عام ١٩٧٧ وكتاب «مشاكل التنمية في البلدان العربية المصدرة للنفط» الذي أصدره المعهد في ١٩٧٧ أيضاً . أما الأبحاث التي أجراها المعهد عن العلاقات الاقتصادية بين المنطقة (وخاصة الأقطار العربية وتركيا وايران) من جهة وأوربا والمانيا واليابان من جهة ثانية فقد نشرت غالباً في المجلات العلمية المتخصصة وفي كتب مجمعة تشمل مواضيع ومناطق أخرى . هذا وتشمل اهتمامات المعهد أيضاً علاقة الاسلام بالاقتصاد من الناحية النظرية والتطبيقية . فقد كتب عزيز القزاز عن المصارف الاسلامية في المنطقة العربية وعن أسلمة النظام المصرفي في باكستان .

ومن الجدير بالذكر أن علاقات التعاون بين المعهد ومعاهد الأبحاث الاقتصادية في المانيا قد توسعت في الآونة الأخيرة ، لا سيا بعد افتتاح أقسام متخصصة بالشرق الأوسط في بعض الجامعات مثل جامعة برلين الحرة (ديتر وايس) وجامعة إرلانغن في نورنبرج وجامعة الرور في بوخوم (فولكر نينهاوس) .

كما في الميدان السياسي الذي ازدادت أهميته في الفترة الثانية فقد قدم المعهد عدداً متزايداً من الدراسات المتعلقة بالسياسات الداخلية والخارجية لدول المنطقة وبتطور علاقات القوى الدولية بهذه الدول ، وكذلك عن التيارات الايديولوجية والفكرية في المنطقة . وكان الاهتمام في السياسة الداخلية يتركز على القضايا الأساسية كتلك التي عولجت مثلاً في كتاب غيرهارد وايبر عن «العسكر والتطور في تركيا للفترة ١٩٤٥ - ١٩٧٣» الذي أصدره المعهد عام ١٩٧٨ . وكتاب ميشائيل ولفزون عن «السياسة في اسرائيل» (١٩٨٣) ، وكتاب أحمد ايفين عن «تركيا الحديثة - الاستمرار والتغير» (١٩٨٤) ، وكتاب إكهارت ايرنبرغ عن «التسليح والاقتصاد في منطقة الخليج» (١٩٧٨) . وقد عولجت التطورات الداخلية في كل أقطار المنطقة إما في مقالات متخصصة أو في دراسات تشمل ميادين أخرى . وفي السنوات الأخيرة أزداد الاهتمام بالدور السياسي للاسلام والحركات الاسلامية ، حيث قدم المعهد أبحاثاً عن هذه الحركات والتطورات في بعض الأقطار العربية مثل مصر وسوريا والسعودية وتونس وفي تركيا وايران وباكستان وأفغانستان . من المنشورات المهمة في هذا المجال نشير الى كتاب خالد دوران عن «الدور السياسي للاسلام في الشرق الأوسط (١٩٧٩) وكتابه الثاني عن «الاحياء الاسلامي وسياسة التنمية» (١٩٨٢) وكتاب فرنر انده و أودو شتاينباخ عن «الاسلام في الوقت الحاضر - تطوره وانتشاره ، الدولة ، السياسة ، القانون ، الثقافة والدين» (١٩٨٤) وكتاب كارل هاينريش غوبيل عن «الأفكار الحديثة للشيعة في السياسة والدولة» (١٩٨٤) .

أما في حقل السياسة الخارجية فقد اهتم المعهد كثيراً بدراسة العلاقات بين أقطار المنطقة نظراً لأهميتها في تخفيف حدة التوتر وحل النزاعات الاقليمية وتقليل أخطار اصطدام العملاقين في المنطقة . لذلك أصدر المعهد أبحاثاً عن مشاريع التقارب والوحدة بين أقطار المنطقة ، كما بحث في النزاعات القائمة وتأثيراتها مثل قضية فلسطين ومشكلة الشرق الأوسط ، والحرب العراقية الايرانية ، والصراع على منطقة الخليج ، ودور مجلس التعاون الخليجي في تدعيم الاستقرار ، والنزاع في منطقة القرن الافريقي ، ومشكلة الصحراء الغربية . وكذلك اهتم المعهد بدراسة سياسة المعسكر الشرقي والمعسكر الغربي اتجاه المنطقة وكان دائماً يؤكد على ضرورة قيام المجموعة الأوربية بدور ايجابي لحل النزاعات الأساسية في المنطقة . في هذا الصدد نشير فقط الى دور المعهد في الحوار العربي الأوربي والى كتاب كارل كايزر و أودو ستاينباخ عن «العلاقات العربية الالمانية - العوامل المؤثرة فيها ومشاكل وجهة جديدة» (١٩٨١) ، والى كتاب السيدة اورزل غلاوزن عن «النزاع في الصحراء الغربية وتأثيراته الاقليمية» (١٩٨٢) ، والى دراسة هانز بيتر ماتس عن «سياسة ليبيا الخارجية» (١٩٨٥) .

أما في الميدان الثالث لنشاط المعهد فيتمثل في دراسة التحولات الاجتماعية والثقافية في بلدان المنطقة ، حيث أصدر المعهد عدداً من البحوث المتعلقة بالتحول الاجتماعي والعوامل المقررة له وبتطور أنظمة التربية والتعليم ومؤسسات التعليم الفني والتدريب المهني . هنا نشير فقط الى الدراسة التي أجراها المعهد عن التطور الاقتصادي الاجتماعي وتأثيره على النظام القانوني في العربية السعودية والى الأبحاث التي قام بها عزيز القزاز عن أنظمة التعليم الفني والتدريب المهني في الأقطار العربية والتي نشر بعضها في مجلة «أورينت» .

في كل الميادين الثلاثة المذكورة أعلاه ازداد تعاون المعهد مع بعض الجامعات والمعاهد ومراكز الأبحاث المتخصصة الموجودة في عواصم بلدان المنطقة ، نذكر منها مركز الدراسات السياسية والستراتيجية/الأهرام في القاهرة ومركز الدراسات الستراتيجية في عمان/الأردن والجمعية الملكية العلمية في عمان/الأردن ومركز دراسات الخليج العربي في البصرة/العراق ومعهد السياسة الخارجية في أنقرة وجامعة قار يونس في بنغازي/ليبيا .

أما فيما يتعلق بآفاق تطور المعهد في المستقبل المنظور فهناك عوامل عديدة تبعث على التفاؤل منها ازدياد قدرات أعضاء المعهد العلمية وازدياد أهمية منطقة الشرق الأدنى والأوسط في السياسة الدولية وفي الاقتصاد العالمي وفي الحوار بين ثقافات العالم ، وتخلص المانيا تدريجياً من العقد التاريخية واتجاهها نحو بلورة سياسة شرق أوسطية جديدة وشاملة .

ملاحظات حول رسوم پاول كلي

ستيفان جرون

ليس في الأدب وحده وقع التعبير عن تلك الحيرة المشوبة بالقلق والخوف والتي أحس بها البعض خلال القرن التاسع عشر عندما كان التفاؤل طاغياً على النفوس بسبب التطور الصناعي والتقني . فالرسم هو أيضاً كان حاضراً . وقد شارك في التعبير عن ذلك الشعور الذي كان أكثر حدة في أوساط الفنانين والمبدعين بصفة خاصة . ويعتبر پاول كلي واحداً من أكبر الرسامين الرياديين في هذا المجال . وكان وعيه بخطر العلم على حياة البشرية مبكراً . ولهذا السبب جاءت جلّ أعماله عاكسة لهذه الحيرة الكبيرة التي انفجرت في ما بعد بأكثر حدة في أعمال السرياليين والوجوديين وأيضاً في روايات وأشعار ما يسمى بالجيل الضائع في أمريكا . ويمكن أن نقول أن عدداً كبيراً من الرسامين التجريديين الذين ظهروا فيما بعد استفادوا من أعمال پاول كلي وكانت أعماله منطلقاً لهم للبحث عن أبعاد أخرى لرسومهم ولوحاتهم . ان كلي يذهب بعيداً في الكشف عن المجهول والخفي والغامض . وهو يرى أن الفن أداة للبحث عن البعد الآخر وللولوج الى العالم البدائي والمثالي والقديم . فالعالم المرئي والمحسوس ليس العالم الوحيد . انه يكاد يكون طبقة خشنة وغليظة تغطي عوالم أخرى سرية ومجهولة ، كبيرة وصغيرة ، رائعة ومخيفة في نفس الوقت . غير أن پاول كلي يحاول دائماً أن يقوم في رسومه (نقصد الرسم بالقلم) بما لم يقم به في لوحاته أي الربط بين العالم المحسوس والمرئي وبين العالم الخفي والغامض . وهو يحاول أيضاً أن يجعلهما يتحاوران وذلك من خلال طريقة تعتمد الصرامة العلمية والشكلانية التجريدية . كأن يبتكر أشكالاً ودوائر ومساحات وشخوصاً واقعية ، أي عالماً متكاملاً يعود بنا الى الجذور الأسطورية والخرافية للكون .

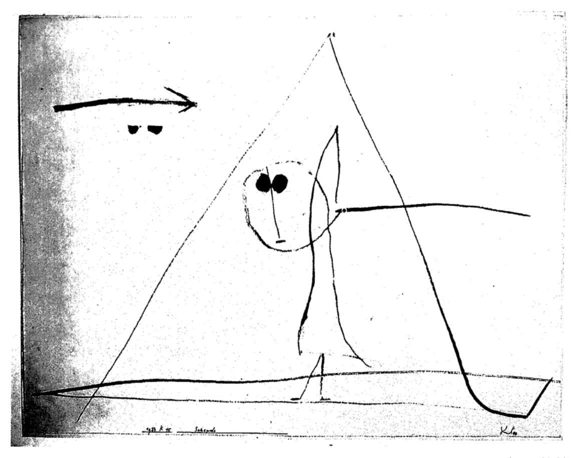
عُرضت لأول مرة رسوم پاول كلي في معارض أقيمت في برلين وميونيخ وبرين خلال خريف ١٩٨٥ .

واحد من هذه الرسوم يحمل عنوان رسم ويبدو واضحاً أن الرسم كان أكسير كلي وعنصره الأساسي وملاذه حين يبحث ويحلم ويشاهد . تحت الخط الذي يمتد دون ملل ليس هناك لا شكل ولا دلالة . وتحتوي الأعمال المعروضة على ٤٩٠٠ رسم كان كلي يحتفظ بها لنفسه . ولهذا السبب لم يكتشفها الناس الا عقب وفاته .

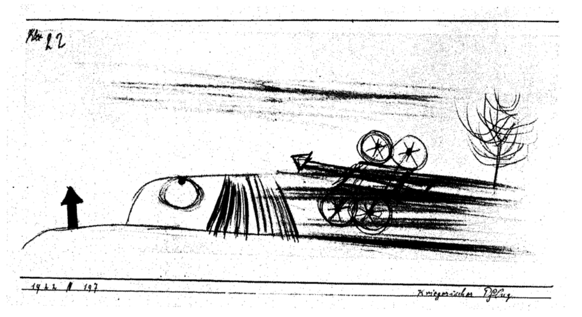
ان المعرض الأخير لهذه الرسوم كشف لنا عن «كلي» آخر يكاد يكون مجهولاً الى حد اليوم . وكما هو معلوم فانه خلال الخمس وعشرين سنة الأخيرة أصبح «پاول كلي» أكثر شهرة وازدادت أهميته قوة وتأثيراً . وقبل ذلك كان يبدو للناس شبيهاً بمتصوف منزوٍ في ركنه بعيداً عن صخب العالم أو بساحر غامض يتيه في الألوان والخطوط . أما الآن فقد تبينت لنا جميعاً صورة «كلي» المناضل المتحمس لطلائعية الفن والفنان الواعي بمعضلات العصر الحديث وبالأحداث الصغيرة والكبيرة التي كان يشهدها العالم في الفترة التي عاش فيها .

ان الرسوم المعروضة تعكس تلقائية «كلي» وأيضاً تلك اللحظات الدافئة والحميمية التي كانت تمر مثل البرق في حياته . وكلها تعود الى فترة اقامته في Bauhaus . كان كلي فناناً كبيراً ملماً تماماً بفنه حين ناداه فالتر غروبيوس Walter Gropius لكي يدرس في ال Bauhaus . وكان كلي أيضاً متوافقاً مع أهداف وأفكار ال Bauhaus ، ولكنه وجد صعوبة في التوفيق بين الفنان والأستاذ . وما أثار انتباهه في تلك الفترة هو محاولة التوفيق بين العلوم – الرياضيات بصفة خاصة – وبين الأحاسيس والانفعالات . ولم يكن ذلك صعباً بالنسبة له وهو المعجب والمفتون بالموسيقى الكلاسيكية . ولهذا كانت الكثير من رسومه تذكّرنا بيوهان سيبستيان باخ Johann S. Bach وخاصة برائعته Kunst der Fuge وأيضاً ببعض التجارب المساحية (قياس السطوح) . وقد طبع كلي ال Bauhaus بطابع معين كما أن ال Bauhaus كان له تأثير كبير على كلي . ولهذا يمكن أن نقول بأن فترة اقامته هناك كانت من أغنى فترات حياته الفنية . ذلك أن ال Bauhaus كان قد لعب دوراً كبيراً في تنشيط الحياة الفنية وفي إعطاء الخلق الفني حياة جديدة .

ملاحظة : ال Bauhaus معهد للبحوث المعمارية والفنية والصناعات التقليدية . وقد أسسه فالتر غروبيوس سنة ١٩١٩ في ڤايمار Weimar ثم نقله الى دسّاو Dessau سنة ١٩٢٥ . وفي سنة ١٩٣٣ تم إغلاقه . وفي سنة ١٩٣٧ بعث من جديد في مدينة شيكاغو الأمريكية . إن هدفه هو الوحدة بين الفن والعلوم والتقنية . وأهم الأساتذة الذين قاموا بالتدريس في هذا المعهد اضافة الى پاول كليه ، الرسام ليونال فاينينغر L. Feininger وفاسيلي كاندينسكي Wassily Kandinsky والمعماري الكبير ميس فان دير روهي Mies van der Rohe .



باول كلي : خجل ، ۱۹۳۳ .



محراث حربي ، ۱۹۳۳ .

الأحـداث الثقـافيــة في ألمـانيـا

جوائز أدبية

١) قدمت أكاديمية اللغة والأدب في دارمشتادت جائزتها السنوية هذا العام الى الكاتب المسرحي هاينر موللر . وهذه الجائزة المسماة «جورج بوخنر» هي أهم جائزة أدبية في جمهورية ألمانيا الاتحادية . هاينر موللر من مواطني جمهورية ألمانيا الديمقراطية ويبلغ من العمر ٥٦ سنة ، وقد منح الجائزة تقديراً لأعماله المسرحية ولنشاطه كمخرج للمسرح ، هذا النشاط الذي هو أيضاً «محاولة يتصدى بها للجنون السائد في عصرنا» .

٢) حاز الكاتب الروائي زيجفريد لنتس على جائزة توماس مان من مدينة هامبورج . وكانت هامبورج قد تبرعت بهذه الجائزة بمناسبة الذكرى المئوية لميلاد توماس مان عام ١٩٧٥ ثم أصبحت هذه الجائزة تمنح كل ثلاث سنوات الى كاتب «تشع من بين ثنيات أعماله الروح الانسانية التي تتميز بها كتابات توماس مان» . قدمت الجائزة للمرة الأولى الى الناقد الأدبي بيتر دي مندلسون مؤرخ حياة توماس مان ، ثم إلى الكاتب أوفه يونسون (١٩٧٨) وبعدها الى الصحفي والمؤرخ يواخيم فيست (١٩٨١) .

٣) أهدت مدينة كولونيا جائزتها الأدبية هذا العام الى الشاعر الأديب هانس ماجنوس إنتسنسبرجر . وإنتسنسبرجر البالغ من العمر ٥٥ سنة من رواد الأدب الألماني ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وقد عالج في العديد من أعماله قضايا العالم الثالث . بدأ إنتسنسبرجر هذا العام في إصدار سلسلة جديدة بعنوان «المكتبة الأخرى» يقدم في إطارها الأدباء والكتاب الأجانب الى القارىء الألماني . (أنظر باب «كتب جديدة حول العالم العربي») .

وقد نجحت «المكتبة الأخرى» في إصدار كتاب لفت الأنظار في معرض فرانكفورت الدولي للكتاب ، وهو مجلد بعنوان «علامات مائية في الشعر» – أبيات من جميع العصور والأزمنة والبلاد ، كتاب مطالعة لكل يوم ولألف ليلة وليلة .

جائـزة للأدب الافريقـي

خصصت إذاعة صوت ألمانيا جائزة للأدب الافريقي حصل عليها لأول مرة هذا العام الكاتب النيجيري أوكي كالو وزميله من السودان الطيب مهدي . والجائزة مخصصة للدول الافريقية جنوب الصحراء الكبرى . هذا وقد كانت رواية «النهر البين بين» للكاتب الكيني نجوجي فان تيونج على رأس قائمة أفضل الأعمال الأدبية وأكثرها رواجاً المقدمة من إذاعة جنوب غرب ألمانيا في شهر أبريل الماضي ، ويشترك في وضع تلك القائمة ٢٥ ناقداً أدبياً .

جائـزة الأخويـن شول ليورجن هابـرماس

أهدت دور النشر والمكتبات في بافاريا جائزتها المقدمة بالاشتراك مع مدينة ميـونيخ الى الفيلسوف سورجة هابرماس رائد علم الاجتماع المعاصـر في ألمانيا. وتمنح الجائزة سنوياً الى كتاب «يعبر عن فكر مستقل ويساهم في تشجيع الحرية الفردية والشجاعة الأدبية والفكرية والفنية ، معطياً بذلك دفعات مهمة للوعي المعاصر في الإحساس بالمسؤولية .»

حصل هابرماس على الجائزة تقديراً لكتابه الصادر هذا العام بعنوان «الاضطراب الجديد» (دار زوركامب للنشر) . وهابرماس هو السادس في صف الشخصيات التي حازت على الجائزة حتى اليوم ، حصل عليها من قبل كل من رولف هوخهوت ، وراينر كونتسه ، وفرنتس فيمان ، وفالتر ديركس وأنيا روسموس – فيننجر .

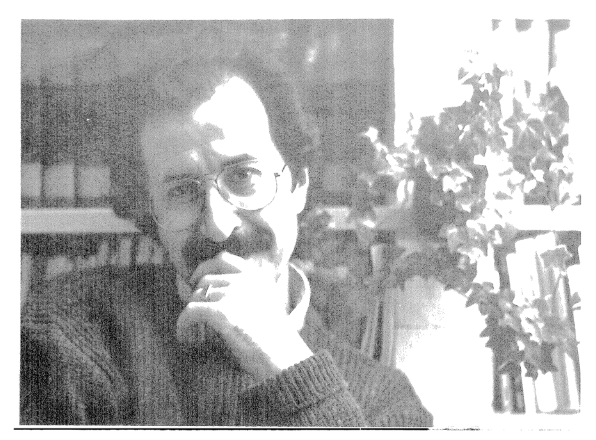
مغامرات في اللغة الألمانية

جائزة «أدلبرت فون شاميسو» الأدبية هي الأولى من نوعها في ألمانيا الاتحادية ، فهي مخصصة «لأعمال كتاب لغتهم الأم ليست الألمانية» وإن كانوا يكتبون بها . وللاسم الذي تحمله دلالة رمزية واضحة ، فصاحبه – شارل أدليد دي شاميسو – كان هو الآخر رحالة متجولاً بين عالمين مختلفين مثله مثل أرآز أورين ، ورفيق شامي . فقد هجر وطنه فرنسا واستقر في ألمانيا ولم يتعلم الألمانية إلا في سن الرابعة عشرة ونشر أهم أعماله الأدبية والشعرية بهذه اللغة الغريبة عليه بعد أن غيّر اسمه الى أدلبرت فون شاميسو .

ولد أرآز أورين باستنبول في سنة ١٩٣٩ وغادرها الى ألمانيا الاتحادية في عام ١٩٧١ حيث انخرط في صفوف العمال الأتراك . ويعيش أورين الآن ككاتب متفرغ في برلين الغربية . يمثل أورين أدب العمال الأجانب الصادر باللغة الألمانية ، واهتمامه مركز على قضية التعايش بين الأجانب والألمان . ومسرح الأحداث في رواياته وأشعاره حي كرويتسبرج في برلين الغربية ، وغالبية سكانه من المهجرين الأتراك الذين نزحوا خلال العشرين سنة الماضية قادمين من قرى تركية ومدنها وليس في نيتهم إلا أن يقضوا سنوات قليلة في هذا العالم الغريب عليهم ، وبمرور السنوات تحول نزوحهم المؤقت الى إقامة مستديمة . وهذه الاقامة المستديمة – غير المقصودة – هي الموضوع الرئيسي في طبوغرافية أورين الشعرية .

أما رفيق شامي فهو من مواليد عام ١٩٤٦ بدمشق وينتمي الى أسرة من الحرفيين . بدأ رفيـــق يهتم بالكتــــابة في وقت مبكر بتشجيع من والديه ونشر محاولاته القصصية الأولى في مجلة المدرسة ثم في الصحف العادية . شرع مع صديق له من دمشق أيضاً في تحرير مجلة حائطية باسم «المنطلق» ، وظهرت له قصتان في عام ١٩٦٥ ، الأولى بعنوان «البصلة» والثانية هي «الوردة الحمراء» .

حاول رفيق مبكراً أن يوفق بين الأسلوب الوصفي الواقعي القادم من الغرب وبين انعكاسات الواقع الشرقي الذي يعيشه يومياً . فهو يرى أن ذلك الأسلوب الوصفي الملتزم بالواقع عاجز عن التعبير عن هذا الواقع ذاته



الحاكي رفيق الشامي.

بتعقداته ، فلا يقتصر الواقع على الادراك الحسي التجريبي فقط وإنما يشمل أيضاً أحلامنا وتصوراتنا ورغباتنا . فأصبحت الخرافة أو الأسطورة هي النوع الأدبي المفضل الى نفسه ، يحاول أن يتقرب به الى وجدان القارىء الألماني .

القضية الأساسية في أعمال رفيق شامي هي قضية الغريب اللامنتمي ، كما أن مصير الأقليات شاغله الأدبي ، ففي كل قصصه تتوضح خبرة الانتماء الى الأقلية ، يعبر عنها بأساليب الضعفاء في السيطرة على قدرهم : التهكم والسخرية ، وذلك الحس المرهف الذي يتميز به الغريب والذي يساعده على المقاومة في مجتمع قاس .

إن جائزة «أدلبرت فون شاميسو» هي أول «محاولة من نوعها للاعتراف بوضع اجتماعي قائم قد غير الكثير من ثقافة ألمانيا الاتحادية وأنماط الحياة فيها خلال العشرين سنة الماضية . نعني بذلك وجود ملايين الأجانب بين صفوف الشعب الألماني ، على رأسهم العمال المهجرين من جنوب أوربا وتركيا والبلاد العربية . تغيرت صورة الدولة الوطنية المتجانسة وتغير معها الأدب من خلال «أدب قادم من الخارج» يقدم عنا رؤية مغايرة ومختلفة عن تلك التي نمتلكها حول أنفسنا ويفتتح لنا آفاقاً جديدة نتفهم بها ما استعصى علينا فهمه الى الآن . اضافة الى ذلك يتيح لنا هذا النوع من الأدب فرصة أن نبني جسوراً بين القارات والثقافات تحملنا الى ضفاف أراضٍ أدبية لم تُكتشف بعد .

عندما سئل رفيق شامي عما اذا كانت أعماله هي تعبير عن «إستطيقا فن البقاء على الحياة» أجاب بقوله : « – بالطبع ، فالبلاد العربية هي أرض مجهولة هنا ، وسائل الاعلام مليئة بالأخبار السياسية ، أما جوهرنا الحضاري – ذلك الجزء المكمل لذاتي والمرتبط بها . فهو مغلف بصمت كثيف» .

ليس «أدب العمال الأجانب هو ما يعنينا ، شغلنا الشاغل هو الوطن الذي هجرناه ، نعرّف به كي يسهل التقارب بيننا .»

كتب جديدة حول العالم العربي

بسام طيبي :
الالام ومشكلة الاستيعاب الحضاري للتغير الاجتماعي
٣٥٠ صفحة ، دار النشر زور كامب Suhrkamp
فرانكفورت / ماين ١٩٨٥ .

دريس بن محمد الشرحادي :
حياة كلها تقلبات
دونه وترجمه الى الانجليزية بول باولز Paul Bowles
الترجمة الالمانية : آن روت شتراوس Anne Ruth Strauss
سلسلة «المكتبة الأخرى»
من إصدار هانس ماجنوس إنتسنسبرجر
دار النشر جرينو Greno
نوردلنجن ١٩٨٥

عبده عبود :
الرواية الألمانية في العالم العربي
مجموعة «تحليلات ووثائق»
كتب في الأدب الجديد
المجلد ١٨ ، ٣٠٣ صفحات
دار النشر بيتر لانج Peter Lang
فرانكفورت / ماين ١٩٨٤

«المكتبة الشرقية»

تعيد دار النشر بيك C. H. Beck في ميونيخ إصدار سلسلتها بعنوان «المكتبة الشرقية» إبتداءاً من خريف ١٩٨٥ .

تسعى هذه المجموعة الى تقديم أعمال بارزة من الانتاج الأدبي لشعوب آسيا من الشرق الأقصى الى الشرق الأوسط وشمال إفريقيا .

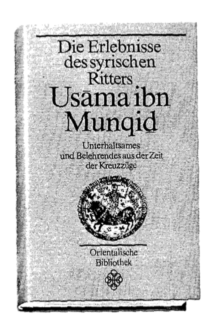
وتبدأ المجموعة بكتاب «الاعتبار» لأسامة بن منقذ ، يتبعه «اللص والكلاب» لنجيب محفوظ ثم «أخبار النساء» لابة القيم الجوزية .

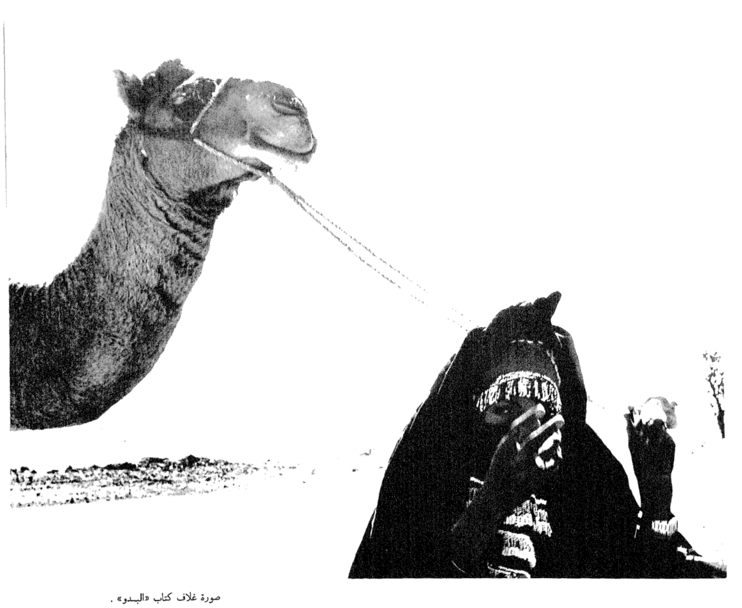
كتب مصورة

١ - مصر
النص من إعداد إريكا ڤونشه Erika Wünsche
والصور ميخائيل شڤيربرجر Michael Schwerberger
دار النشر بروكمان Bruckmann-Verlag
ميونيخ ١٩٨٥

من روائع الطرق في تركيا
النص من إعداد مارتين أموده Martin Amode
والصور لڤرنر نويمايستر Werner Neumeister
دار النشر زوددويتشر Süddeutscher-Verlag

أنّو ڤيلمز / إردموته هِللر
البـــدو .
١٠٤ صفحات
دار النشر پاول ليست Paul List
ميونيخ ١٩٨٥





صورة غلاف كتاب «البـدو» .

مجـلات

مجلـة التبـادل الثقافـي
العالم الاسلامي بين التراث والتقـدم .

الجزء الأول

السنة الخامسة والثلاثون ١٩٨٥

الفصـل الثالـث

يصدرها معهد العلاقات الخارجية في شتوتجارت .

مجموعة وثائق عن «نقاش توبنجن السـادس حول قضايـا التنمية» ، عُقد في ١٧ و١٨ مايو ١٩٨٥ .

تتضمن المحاضرات التالية :

هانس كونج «المسيحية والإسلام»

حمدي عـزام «الاسلام بين العقيـدة والتصـوف»

ماتياس شرام «العلوم الطبيعيـة في الاسلام وتأثيرهـا على الحضارة العربية» .

ڤولف ديتريش فيشر «لقاءات مع أدب الشعوب الاسلامية في أوروبا»

هنّا إردمـان «ملاحظات حول جوهر الفن الإسلامـي»

فريتس شتـات «إسهام الاستشراق الألماني في تفهم الاسـلام»

مجلـة التبـادل الثقافـي
السنة الخامسة والثلاثون ١٩٨٥

الفصـل الأول

«أن الفرحـة لفي داخلي»

تجربة الهجرة وصورة المانيا في الأدب التركي المعاصر .

يصدرها جونتر ف . لورنتس ويوكسل پازركايـا

نصوص مختـارة وصور مـن رسم فنـانين أتراك مقيمين في جمهورية المانيا الاتحادية .

* * *

مركز علمي جـديد للدراسات التركية ببـون

تم في ١١ أكتوبر ١٩٨٥ إفتتاح مركز جديد للدراسات التركية برئاسة الدكتور فاروق سن بالمركز العلمي بمدينة بون – المانيا الاتحادية . وتجدُر الاشارة بأن تكاليف تأسيس هذا المركز قد تولّتها الرابطة العلمية الالمانية .

والهدف الرئيسي للمركز هو إمداد المهتمين في المانيـا الاتحاديـة بمعلومات وافية عن المجتمع التركي وثقافته وتاريخه ليساهم من خلال ذلك وعن طريق تكثيف التعاون بين البلدين في تحسين العلاقات الالمانية – التركية .

هذا وقد حُدِّدَت مشاريع عمل مختلفة يمكن تفصيلها كالآتي :

١ – تكثيف العلاقات العلمية بين المانيا وتركيا عن طريق البحث العلمي المشترك .

٢ – تنظيم وتنفيذ مشاريع البحوث المشتركـة مثل المحاضرات والمؤتمرات واتصالات الاخصائيين من البلدين .

٣ – تنظيم وتشجيع التعاون مع الالمان المتخصصين في شؤون تركيا .

٤ – تأسيس مركز للمعلومات يتولى تبويب النتائج البحثية العلمية وتسهيل الاصدارات . واضافة الى ذلك تقديم معلومات عن التطورات الاجتماعية والثقافية بتركيا .

ولتأسيس المركز أهمية عظمى ترجع الى أن هناك ٤ر١ مليون مواطن تركي أو ٥ر٢ بالمئة من جملة السكان الالمان يعيشون حالياً في ألمانيا الاتحادية . وهؤلاء الأتراك تحولوا ومنذ هجرتهم الى المانيا في غضون الخمسة وعشرين سنة الماضية من عمال مؤقتين الى مقيمين مستديمين . ويشكل ذلك بالطبع مشاكل اجتماعية وسياسية طويلة المدى للبلدين – المانيا وتركيا – لا يمكن التغلب عليها الا بتكثيف الجهود المشتركة .

تحية الى السيد
هانس كالا
وزوجته السيدة سيغريد

كان ذلك في ربيع ١٩٨١ حين تعرفنا على السيد هانس كالا وزوجته السيدة سيغريد .

كنا في المركز الثقافي الدولي بالحمامات حيث عقدت ندوة خاصة بالشعر التونسي الجديد . وكان هناك أجنبيان - رجل وامرأة - يتابعان باهتمام شديد من البداية الى النهاية المناقشات والمحاضرات . كما أنهما حضرا الأمسيات الشعرية التي أقيمت خلال تلك المناسبة . وفي البداية اعتقدنا أنهما مجرد سائحان فضوليان . ولكن الاستاذ رشاد الحمزاوي مدير المركز أعلمنا في آخر الندوة بصفتهما الحقيقية .

وطول السنين الخمس الأخيرة التي أمضاها السيد «كالا» سفيراً لبلاده - ألمانيا الاتحادية - في تونس ، حرصت زوجته السيدة سيغريد على اقامة عدة جلسات فكرية وأدبية في بيتها حضرتها عدة شخصيات أدبية تونسية من أمثال الكاتب الكبير الأستاذ محمود المسعدي والأستاذ عبد العزيز قاسم والدكتور الحبيب الجنحاني والقاص الراحل البشير حزيف وعدد كبير من الشعراء والأدباء الشبان . كما حضرها أيضاً الروائي السوداني الكبير الطيب صالح والشاعر الفلسطيني الراحل معين بسيسو والشاعر المصري عبد المعطي حجازي وأيضاً أدونيس وسلمى الخضراء الجيوسي وكمال ابو ديب وحليم بركات وغيرهم من الأدباء والمثقفين العرب . وطوال هذه المدة أيضاً نادراً ما تخلف السيد «كالا» وزوجته السيدة سيغريد عن حضور ندوة ثقافية أو فكرية عقدت في تونس . كما أنهما كانا يزوران باستمرار المدينة التاريخية الشهيرة : القيروان . وكانا شديدي الانبهار بآثارها وباصالتها . وقد قدم السيد «كالا» منحة خاصة لفرقتها المسرحية ، كما أنه وقبل أيام من إحالته الى التقاعد - أغسطس ٨٥ - أمضى قراراً يقضي بأن تعمل مؤسسات ألمانية مختصة بالعمل على صيانة الوثائق الخاصة بجامع عقبة نافع .

وقد عاش السيد «كالا» وزوجته السيدة سيغريد احدى عشر سنة في مناطق مختلفة من العالم العربي : بغداد (١٩٥٨ - ١٩٦١) ، الخرطوم (١٩٧٧ - ١٩٨٠) ، وتونس (١٩٨٠ - ١٩٨٥) . كما أمضيا ثماني سنوات في الهند والباكستان . وهذا ما أكسبهما خبرة كبيرة في شؤون العالم العربي وحفّز حماسهما للغة والثقافة العربية وأيضاً لدراسة التاريخ العربي - الاسلامي والتقاليد والعادات . وقبل ذلك درس السيد «كالا» وزوجته السيدة «سيغريد» اللغة العربية في جامعة بون .

والسيد «كالا» وزوجته السيدة «سيغريد» هما ابنا مستشرقين كبيرين : السيد بول كالا (١٨٧٥ - ١٩٦٤) الذي كان يدرس في جامعة بون



السيد كالا بصحبة زوجته السيدة سيغريد .

والسيد «هنريك صامويل نيبيرغ» (١٨٨٩ - ١٩٧٤) الذي كان يدرّس في جامعة «أوبسالا» بالسويد .

وقد أعدّت السيدة «سيغريد» دراسات باللغتين الألمانية والسويدية حول الأدب العربي نشرتها في مختلف المجلات والجرائد السويدية والألمانية . كما ترجمت عدداً من قصائد أدونيس والدرويش والبياتي وغيرهم من الشعراء . اضافة الى ذلك يعود للسيدة «سيغريد» الفضل في إعداد مؤتمر كبير للشعر - السويدي - العربي انعقد بمدينة «لوند» (جنوب السويد) في خريف ٨٤ وحضره عدد من الشعراء والنقاد العرب ، وكان له صدى كبير في الأوساط الثقافية السويدية . وفي الفترة الأخيرة تم تعيينها رئيسة لمعهد الشرق في ستوكهولم .

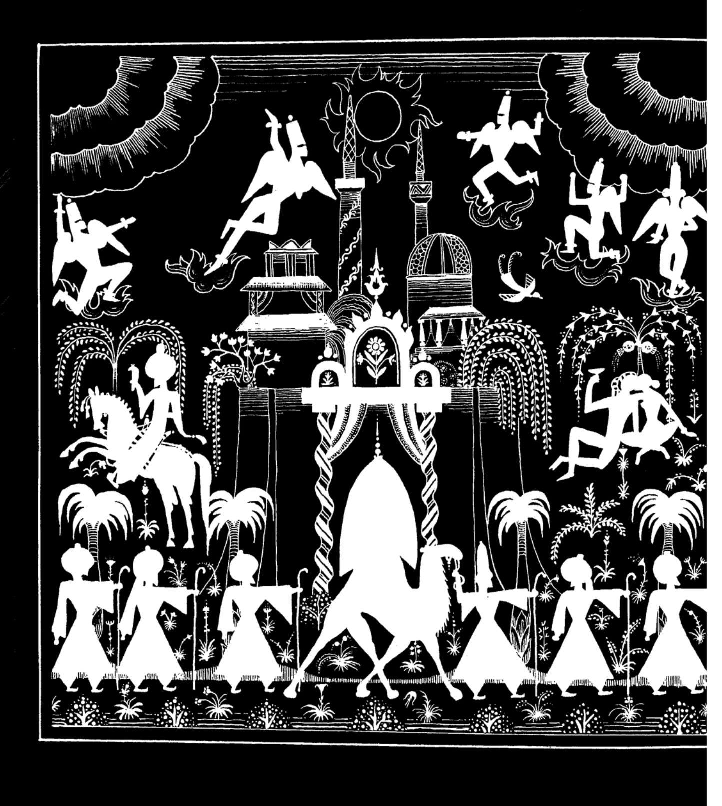
ويسعد مجلة **فكر وفن** أن تحيي السيد «كالا» والسيدة زوجته لجهودهما الكبير الذي بذلاه من أجل تقوية الروابط الثقافية بين ألمانيا والعالم العربي . كما أنها توجه شكرها الخاص للسيد «كالا» الذي يعدّ من أكبر المدافعين عن هذه الروابط وعن وجودها واستمرارها .

تحية الى
الدكتور هورست شيرمير

في أواخر سنة ١٩٨٥ ، يغادر الدكتور هورست شيرمير Dr. Horst Schirmer منصبه كرئيس لمنظمة INTER NATIONES الذي شغله لمدة طويلة ، ليصبح سفير البلاد في «مونتيفديو» . وقد ولد الدكتور هورست شيرمير سنة ١٩٣٣ في برلين . وبعد أن أنهى دراسته في العلوم السياسية والقانونية في جامعة كولونيا ، شغل عدة مناصب ديبلوماسية في سفارات بلاده في كل من مدريد ودبلن وذلك قبل أن يتم تعيينه في القسم الخاص ببلاده في مقر الأمم المتحدة بجنيف ثم ملحقاً ثقافياً في مدينة مكسيكو . وبعد ذلك تم إلحاقه بالقسم السياسي التابع لوزارة الخارجية الالمانية في بون حيث اهتم أساساً بالمسائل المتعلقة بالتعاون بين البلدان الأوروبية في اطار المجلس الأوروبي .

ومنذ سنة ١٩٧٩ يشغل الدكتور هورست شيرمير منصب رئيس لمنظمة INTER NATIONES . ومعلوم أن هذه المنظمة تأسست سنة ١٩٥٣ . وهي تهدف أساساً الى تعميق العلاقات الثقافية بين المانيا الاتحادية وكافة بلدان العالم . كما أنها تسعى من خلال عملها الى إعطاء صورة واضحة للأجانب حول الثقافة الالمانية وذلك من خلال التعريف بالأدب الألماني وتشجيع حركة الترجمة من الألمانية الى اللغات الأخرى وعرض الأفلام الألمانية وتوزيعها ، وتمكين الأجانب من تعلّم اللغة الألمانية . الى جانب ذلك تهتم INTER NATIONES بالضيوف الأجانب وتمكنهم من كل المعلومات التي يستحقونها بخصوص المانيا الاتحادية (الاقتصاد ، السياسة والثقافة الخ) .

و INTER NATIONES جهاز مستقل بذاته ، ويشرف على تسييره مجلس إداري يمكن أن ينتسب اليه ، ليس فقط ممثلون عن الحكومة الألمانية وإنما أيضاً شخصيات سياسية تابعة لمختلف الأحزاب المتواجدة ضمن البرلمان الالماني BUNDESTAG والشخصيات السياسية والثقافية المستقلة ، والكتاب والصحافيون الذين يتمتعون بنفوذ كبير سواء في الراديو أو في الصحف والمجلات الألمانية . وتصرف ثلاثة أرباع الميزانية المقدرة بـ ٤٠ مليون مارك من أجل النشاطات الثقافية بصفة خاصة . وقد تأسست مجلة **فكر و فن** ضمن هذا التوجه العام المتميز بالانفتاح على الثقافات الأخرى عامة ، وبتعميق الصلات الثقافية بين المانيا الاتحادية والعالم العربي خاصة . وأوّل من أشرف على هذه المجلة هما : الأستاذ ألبرت تايله Albert Theile والأستاذة أنّي ماري شيمل Annemarie Schimmel اللذان حرصا لمدة عشرين سنة على الاعتناء بها وتطويرها حتى أنها بفضل تلك المجهودات الرائعة التي بذلاها ، أصبحت تحظى بقيمة خاصة في الأوساط الثقافية والفنية في جميع أنحاء العالم العربي . وتحولت مع مرور الزمن الى إدارة جيدة للتعريف بمختلف الانتاج الثقافي والفني في ألمانيا ، ومنبراً للكثير من الشعراء والكتّاب العرب . وقد توقفت هذه المجلة لفترة قصيرة في بداية الثمانينات لأسباب خاصة ثم عادت للصدور في شهر كانون الأول / ديسمبر ١٩٨٣ . ويعود الفضل في ذلك الى الدكتور هورست شيرمير نفسه الذي أبدى منذ توليه منصب رئيس INTER NATIONES نشاطاً كبيراً بهدف الحفاظ على علاقات ثقافية جيدة مع بلدان العالم بأسره . ويتكون المجلس ا المشرف على هيئة ادارة مجلة **فكر و فن** من الأستاذ ڤيرنر إنده Werner Ende من جامعة فرايبورج ، والدكتور أودو شتاينباخ Dr. Udo Steinbach من المعهد الشرقي بهامبورغ والاستاذ ستفان ڤيلد Stephan Wild من جامعة بون . وابتداء من أوائل يناير/كانون الثاني ١٩٨٦ ، يخلف الدكتور ديتر برانكي Dr. Dieter Benecke الدكتور هورست شيرمير على رأس INTER NATIONES والذي كان مديراً لقسم التخطيط في Konrad- Adenauer-Stiftung في بون . تحية للدكتور شيرمير من أجل مجهوداته الكبيرة والموفقة التي بذلها في مجال تعزيز التعاون بين المانيا الاتحادية ومختلف بلدان العالم .



FIKRUN WA FANN 42

